لغز وادي بوسكومب

-

مغامرات شيرلوك هولمز

لغز وادي بوسكومب

تأليف

آرثر كونان دويل

ترجمة

محمد يحيى عبدالكريم

مقدمـــة

تتسم قصص شيرلوك هولمز للكاتب آرثر كونان دويل بأهمية عامة وأكاديمية على حد سواء. ففي الاثنتى عشرة سنة الماضية، تطور النقد الموجه إليها ليصبح حواراً بناء ومستمراً.

ويعرض هذا الكتاب أهم قصص شيرلوك هولمز وأكثرها تشويقاً. هذا بالإضافة إلى مجموعة من المواد الأخرى التي من شأنها مساعدة القارئ على الفهم. منها نبذة عن حياة دويل وأعماله.

حول النص:

ما من نص نموذجي لقصص شيرلوك هولمز. وتعتبر المجموعة الإنجليزية المجموعة الأبرز، وهي تتألف من مجلّدين نشرهما موري علمي ١٩٢٨م و١٩٢٩م على حياة دويل؛ بينما نشر- وبلدي عام ١٩٣٠م المجموعة الأمريكية الأبرز بعد وفاة دويل. لكن الكثير من

الأخطاء والتناقضات يشوب النسختين. ويبدو أن ناشري الطبعة الأمريكية حاولوا تصويب الأخطاء الفاضحة في النسخة الإنجليزية، لكنهم أدخلوا أيضاً بعض الأخطاء المطبعية الجديدة وعدلوا أحياناً كلمات وتعابير إنجليزية بدت لهم غامضة، أو اعتبروها خطأ غير صحيحة.

- يرتكز نص قصص شيرلوك هولمز في هذا الكتاب على الطبعات الإنجليزية الأولى. وقد نُشر العديد من القصص في بداية الأمر تحت عنوان «مغامرات..»: فنحصل مثلاً على «مغامرات الياقوت الجمري» أو «مغامرات الزمرة المرقطة». وقد اعتمد دويل النسخ الموجزة والأكثر تداولاً لهذه القصص، أو سمح لتأثر به القيام بذلك في طبعة العامة ١٩٢٨م.

شيرلوك هولمز:

ظهر شيرلوك هولمز، أول «رجل تحري استشاري غير رسمي» في العالم، في الأدب الإنجليزي قبل نحو قرن تقريباً، وسرعان ما فرض نفسه في الثقافة الإنجليزية عامة، وأصبح أحد أشهر الشخصيات الأدبية، وما زال يحتفظ بهذه المكانة حتى اليوم.

والصورة المتداولة عنه هي صورة رجل طويل القامة، نحيل الوجه، بهي الطلعة، يعتمر قبعة خاتل الأبانل، وفي فمه غليون وعلى كتفيه كاب. وسيكتشف القارئ في مجموعة القصص هذه شخصية شيرلوك هولمز على حقيقتها.

السير آرثر كونان دويل:

ذات يوم من عام ١٩٠٧م، طلبت إحدى السيدات من السيد آرثر كونان دويل نصيحة تحرية، قائلة إن نسيبها المفضل اختفى قبل أسابيع في لندن، وقد حير لغزه الشرطة من غير أن تعرف ماذا حل به!

قرر دويل أن يستلم القضية كما اعتاد أن يفعل بين الحين والآخر، فنجح في غضون ساعة في حل اللغز من دون أن يبرح مكانه. وكتب يقول: «نسيبك موجود في اسكتلندا. ابحثي عنه في غلاسكو أو أدنبره وأؤكد لك أنك ستجدينه هناك. «وبالفعل، عثر عليه في اسكتلندا بعد أن مر بلندن. إنما استطاع دويل فك اللغز بهذه السرعة بمجرد «بحث المسألة من منظار السيد هولمز».

لقد أثبتت هذه الطرفة وغيرها الكثير أن ثمة نفحة من روح

شيرلوك هولمز في آثر كونان دويل. فهو شأنه شأن شخصيته البارزة، متنبه لأدنى التفاصيل، ويتمتع بمخيلة واسعة وخبرة اجتماعية وفكرية غنية وميل إلى الدراما. والأهم من ذلك قدراته اللاذعة والتحليلية. وهو لم يكتسب قدراته التحليلية عن طريق الصدفة، بل ساعدته في ذلك دراسته وخبرته المهنية، في سنوات الدراسة المدرسية الثمان أولاً وسنوات دراسة الطب الخمس في جامعة أدنبره ثانياً. وقد مارس بعد تخرجه من الجامعة الطب مدة عشر سنوات، قبل أن يتفرغ للكتابة. ويبدو أن تدريبه الطبي كان وراء تصوره الخاص لشيرلوك هولمز كرجل تحريات علمي يحل القضايا بناءً على قدراته الخاصة، وكمفتش يتقن المبادئ التحليلية وأهمية التفاصيل في آن. ويتطلب التشخيص الطبي الدقيق (التحري) القدرة على التحليل المنطقي وعين الطبيب الخبيرة لملاحظة العوارض الكامنة (المفاتيح) وراء المرض. وكما كتب أحد أساتذة كونان دويل في أدنبره «إن رؤية الاختلافات البسيطة وتقديرها بدقة وحكمة هي العامل الحاسم في إجراء تشخيص طبي ناجح. في الحياة العادية، نجد شيرلوك هولمز الذي يذهل صديقه واتسون. وفي إطار التدريب المتخصص نجد شيرلوك هولمز رجل التحريات الماهر».

إن صاحب هذا أثر أي كان، باعتراف كونان دويل، نموذج شيرلوك هولمز نفسه. فالدكتور جوزف بيل اشتهر بقدرته على اكتشاف، ليس الشكاوي الطبية فحسب، بل أيضاً انشغالات مرضاه وخلفياتهم مع أنهم كانوا غرباء عنه. وأصبح كونان دويل معاون بيل لإدارة ملفات مرضاه. وكتب لاحقاً يقول: «سنحت لي الفرصة لدراسة طرقه في العمل، فتبين لي أنه غالبا ما كانت نظراته الخاطفة كافية ليعرف عن مرضاه أكثر مما عرفته أنا من خلال أسئلتي».

وقس على هذه الحادثة حوادث كثيرة تظهر قدرات بيل التحليلية. وظل دويل يذكر مدى تأثير هذه الحوادث حتى بعد سنوات في مطلع حياته كمؤلف، عندما قرر انتهاج خط قصص التحري. وهكذا ظهرت شخصية شيرلوك هولمز في «دراسة في اللون لفرمزي» (١٨٨٧م).

إن قدرة كونان دويل التحليلية الناجمة عن تدريبه الطبي كانت السمة البارزة في شخصيته. وقد تجلت بنوع خاص في حملاته التحرية العامة أولاً لصالح جورج إيدلجي ومن ثَمَّ لصالح أوسكار سلايتر، اللذين وقعا ضحية الرهاب البريطاني، ففأتهما بارتكاب جرائم هما براء منها وأودعا السجن. وتجلت أيضاً في استشرافه قبل الحرب العالمية

الأولى مخاطر فرض حظر بالغواصات على إنجلترا. وتجلت أخيراً خلال الحرب في دعوته إلى تزويد الجنود والبحارة في البحر بسترات إنقاذ وفي ابتكاره شيفرة سرية للتواصل مع سجناء الحرب البريطانيين. وكان آرثر كونان دويل تماماً وشيرلوك هولمز نموذجاً للعقلانية في حقبة الحكم الفيكتوري والإدواردي.

لكن خلافا لهولمز، لم يكتف دويل بالعقلانية، بل اعتبر نفسه داعية للروحانية (أي الإيمان بأن أرواح الأموات تحيا بعد مماتهم وقادرة على التواصل عبر جلسات خاصة أو بالتخاطر أو ما شابه مع الأحياء)، وهي قضية كرس سنواته الأخيرة في سبيلها. وقد نشر أول مقالة له حول الظواهر الروحية عام ١٨٨٧م أي سنة نشر «دراسة في اللون القرمزي»، وانضم إلى الجمعية البريطانية للأبحاث الروحية «عام ١٨٩٣م في موازاة نشر «مذكرات شيرلوك هولمز «في مجلة» ستراند.

أثرت هذه الكتابات والتوجهات على سمعة دويل بين معاصريه من دون أن تنعكس على قصص شيرلوك هولمز. إلا أنها تجسد منحى رومنطيقياً أعمق وأكثر تأصلاً في شخصية دويل، مما أثر بشكل أو بآخر على قصص هولمز. وكان لوالدته ماري فولي دويل اليد الطولي على ما

يبدو في بروز هذا المنحى نظراً إلى علاقتها الوثيقة (خلافاً لوالده الذي لم يلعب دوراً بارزاً في تربيته يسبب مشاكله الصحية).

طغت شهامة دويل وتثمينه للشرف على القصص التاريخية التي كان يفخر بها، لا سيما «الشركة البيضاء» (١٨٩١م) و«السير يغيل» (١٩٠٦م)، والتي تروي مغامرات فروسية في القرن الرابع عشر في إنجلترا. كما برز هذا الحس في العديد من القضايا التي نذر في سبيلها طاقاته ومهاراته.

ويشاطر هولمز وواتسون دويل تمسكه الراسخ بأصول الشهامة وقيم الرجل النبيل وواجباته، الأمر الذي يسمح بنصرة الحق والدفاع عن المخطئين وحماية الضعفاء.

ولا شك أن أصول الشهامة والشرف تعني أيضاً أصول التصرف مع النساء وهي علاقات طرحت تحديات كبيرة لكل من دويل وهولمز. وكان دويل من دعاة إصلاح قانون الطلاق. أما على الصعيد الشخصي، فبعد ٧ سنوات من الزواج و٣ سنوات على إصابة زوجته بذات الرئة، وقع سنة ١٨٩٧م في غرام جين ليكي التي بادلته الحب وتمسكه بالشرف. وقد عاشا معاً قصة حب سرية مدة عشر سنوات

قبل أن يعقدا قرانهما بعد سنة على وفاة زوجة دويل، وكان هذا بنظره التصرف الشريف الوحيد الذي يمليه عليه ضميره.

كذلك كان تصرف شيرلوك هولمز حيال النساء شهماً مع أن معظم مشاكله معهن كانت مهنية أكثر منها شخصية. وقد برزت في هذا السياق مناورات! يرين أدلير في «فضيحة في بوهيميا» التي أغنت شخصية هولمز الأسطورية.

وكان دويل بروحه التحليلية وهولمز بروحه التحليلية المفرطة يعتبران أن التحقيق والتفسير العقلانيين قد يلتبسان إذا ما أعمتهما الثقة بالفرضيات الشخصية، وغالباً ما تكون الفرضيات المضللة فرضيات أخلاقية.

وقد برز جانب مثير من حياة دويل الشخصية في وصفه للأيام التي أمضاها برفقة الجيش في أفريقيا الجنوبية خلال حرب البوير عام ١٩٠٠م؛ حيث عثر على جندي أسترالي قتل في معارك اليوم السابق لكن أياً من فرق الإنقاذ لم تكتشف جثته.

قصص شيرلوك هولمز

كانت قصة شيرلوك هولمز الأولى «دراسة في اللون القرمزي» قد نشرت في «نشرة بيتون الميلادية السنوية Beeton's Christmas Annual» عام ١٨٨٧م مقابل بدل أتعاب قليل. لكن أحد قرائها، وهو ناشر مجلة شهرية، حضر إلى لندن لإبرام عقد مع كونان دويل وأوسكار وايلد حول كتب جديدة. فألف دويل قصة ثانية «علامة الأربعة» (١٨٩٠م) وألف وايلد «صورة دوريان غريه».

في السنة التالية، أقفل دويل عيادته في ساوثسي وانتقل إلى لندن حيث أمضى معظم أوقاته في كتابة القصص لمجلة «ستراند» الشهرية. وسرعان ما تخلى عن مهنته ليتفرغ للكتابة. وهكذا عرض على المجلة قصتين جديدتين «فضيحة في بوهيميا» و«عصبة الرؤوس الحمراء». وقد طالب الناشر بأربع قصص إضافية كانت باكورة سلسلة «مغامرات شيرلوك هولمز» (١٨٩٢م). ولاقت القصص رواجاً كبيراً فطالبت المجلة بالمزيد منها. فألف دويل ٦ قصص أخرى.

حتى أن المجلة وافقت على دفع بدلٍ مرتفع للحصول على ١٢ قصة إضافية بين ١٨٩٢م و١٨٩٣م. لكن دويل قرر في قصة «المشكلة الأخيرة» أن يضع حداً لوجود بطله.

الواقع أن هولمز احتجب عن الظهور ولم يمت مدة ٨ سنوات، إذ قرر دويل إعادة إحيائه عام ١٩٠١م كبطل للغز جديد بدأ يحيكه منذ مدة وقد لاقى نجاحاً واسعاً.

ظل هولمز يظهر بعد عودته في مغامرات جديدة لعقدين إضافيين. فألف دويل رواية رابعة وأخيرة «وادي الخوف» (١٩١٥م) إضافة إلى نشر قصص شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» حتى عام ١٩٢٧م. إلا أن مستواها تراجع بوضوح مقارنة مع سابقاتها.

ومع ذلك لم يتذمر دويل من عدم تجاوب القراء إدراكاً منه لولائهم وصبرهم. وقد قال فيهم «أخشى أن يصبح السيد شيرلوك هولمز كأحد التينورات المشهورين الذين، وبعد أن ولى زمانهم، لا يزال يستهويهم الانحناء مراراً وتكراراً أمام الجمهور المحب».

وبما أن هولمز قد انحنى «انحناءته الأخيرة» عام ١٩١٧م، فقد كان

هذا الاعتراف عام ١٩٢٧م في مكانه ومؤثراً جداً.

من «دراسة في اللون القرمزي»

تخرجت كطبيب من جامعة لندن عام ١٨٧٨م ومضيت إلى نيتي لمتابعة درس خاص بجراحى الجيش. ثم ألحقت بفوج الرماة الخامس في نورثمبرلند برتبة جراح مساعد. ولما حططنا رحالنا في بومبي حيث كان الفوج في مهمة، علمت أنه قد تقدم إلى الخطوط الأمامية وأننا أصبحنا في عمق أراضي العدو.

وقد جلبت الحملة معها التكريم والترقية للكثيرين، لكن ليس لي حيث لم تحمل معها سوى سوء الطالع والكوارث. وعندما كنت أعمل في معركة سيواند الفتاكة، اخترقت رصاصة كتفي. واضطررت إلى أن أمضي الأشهر التسعة التالية في النقاهة حتى أستعيد عافيتي.

لم يكن لي معارف أو أقرباء في إنجلترا، فكنت بالتالي حراً طليقاً. فقصدت لندن حيث مكثت لبعض الوقت في فندق خاص في ستراند، أنعم بحياة رغيدة من دون هدف، أنفق فيها المال على ما طاب ولذ لي. إلا أن حالتي المالية ساءت لدرجة اضطررت معها إلى تغيير نمط حياتي

تغييراً جذرياً. فعقدت العزم على مغادرة الفندق والاستقرار في مقر أقل فخامة وأرخص ثمناً.

وفي اليوم نفسه، إذا بأحدهم يربت على كتفي بينما أنا واقف في حانة كرايتيريون؛ واستدرت فإذا به الشاب ستمفورد. لا شك أن رؤية شخص ودود وسط مدينة موحشة كلندن هو أسعد ما قد يحصل لشخص وحيد مثلي. وفي غمرة الفرح، دعوته إلى الغداء.

– سأل متعجباً: ما آخر أخبارك يا واتسون؟

– فرحت أروي له بإيجاز مغامراتي، وبالكاد انتهيت منها لما وصلنا إلى المطعم.

– أردف مستوضحاً: «وماذا تنوي أن تفعل الآن؟»

– أجبت: سأبحث عن مسكن وأحاول حل المعضلة لمعرفة ما إذا كان بالإمكان إيجاد غرف مريحة بأسعار مريحة أيضاً.

– «يا للغرابة! أنت ثاني شخص يُسمعني نفس العبارة اليوم».

– سألت: «ومن كان الأول؟»

– صديق يعمل في مختبر الكيمياء في المستشفى. كان يتذمر هذا

الصباح لأنه عجز عن العثور على شخص يقاسمه غرفاً جميلة كان قد عثر عليها ولم يكن قادراً على تكبد ثمنها.

– «إذا كان جاداً في إيجاد من يشاطره الغرف والتكلفة، فأنا الرجل المناسب. أفضل أن يكون لي رفيق على أن أكون وحدي.

– نظر الشاب ستمفورد بغرابة إليَّ. «أنت لا تعرف شيرلوك هولمز حق المعرفة، ولعلك لن ترغب فيه كرفيق دائم».

– «لم، ما الخطب؟»

– «أنا لم أقل أن ثمة خطباً. بل فقط إن أفكاره غريبة بعض الشيء. لكنه عالم كيمياء من الطراز الأول.

– فسألت: ألم تسأله أبداً عن طموحه؟»

– «كلا؛ ليس من السهل جعله يتكلم، مع أنه قد يطلق العنان للسانه إذا ما أولع بشيء».

– «أود رؤيته. كيف لي ذلك؟»

– أجاب قائلاً: «لابد أنه في المختبر. فهو إما يتحاشى المكان لأسابيع أو لا يبارحه ليلاً نهاراً. يمكنني اصطحابك إليه إذا شئت

ذلك بعد العشاء».

– «حسناً». ورحنا نتحدث في أمور أخرى.

– بينما كنا متوجهين إلى المستشفى، راح ستمفورد يحدثني عن تفاصيل أخرى عن ذلك الرفيق العتيد.

– قال: «لا تلق اللوم عليَّ إذا لم تتفق معه. فكل ما أعرفه عنه إنما تعلمته خلال لقائي به في المختبر. أنت من اقترح هذا الحل، وأن المسؤول عنه».

– أجبت مطمئناً: «لا تقلق، إذا لم ينجح الأمر، سنفترق. يبدو لي يا ستمفورد وكأن ثمة سبباً يجعلك تتملص من هذه المسألة. هلا قلت لي ما المشكلة؟ صارحني بها».

– أجاب ضاحكاً: «من الصعب التعبير عما لا يعبر عنه. كل ما في الأمر أن هولمز علمي المزاج كثيراً. يبدو أنه مولع بالمعرفة المطلقة والدقيقة».

– «هذا أمر رائع».

– «صحيح، لكنه مبالغ فيه».

– وبينما نحن نتحدث، استدرنا لنسلك طريقاً ضيقة تؤدي إلى باب جانبي صغير يفضي إلى جناح من أجنحة المستشفى الكبير، وبدا في العمق رواق مفتطر يقود إلى مختبر الكيمياء.

– المختبر كناية عن غرفة فسيحة اصطفت فيها قنانٍ لا تحصى ولا تعد وبعض الطاولات الكبيرة الخفيضة الموزعة هنا وهناك. ولم يكن في الغرفة إلا طالب واحد، منكب على طاولته ومستغرق في عمله. لكنه حالما سمع وقع خطواتنا، استدار وانتفض واقفاً صارخاً فرحاً هلعاً، «وجدتها! وجدتها!» صرخ هذا لرفيقي وهرع نحونا حاملاً أنبوب تجارب.

– عرفني ستمفورد عليه: «دكتور واتسون، أعرفك على السيد شيرلوك هولمز».

– أجاب بلطف شاداً على يدي: «تشرفت بمعرفتك. كنت في أفغانستان على ما أظن».

– « بالله قل لي كيف عرفت؟»

– «لا بأس. الأهم الآن هو الهيموغلوبين. لا شك أنك تدرك أهمية اكتشافي!»

– «طبعاً، إنه مهم على الصعيد الكيميائي، لكن عملياً..».

– «إنه الاكتشاف الطبي القانوني الأكثر عملية على الإطلاق منذ سنوات. إذ يبدو أنه يصلح أيضاً سواء أكان الدم قديماً أو جديداً. لو ابتكر هذا الاختبار قبلاً، لكان مئات الأشخاص الأحرار الآن دفعوا ثمن جرائمهم».

– تمتمت مجيباً: «بالفعل!»

– «لطالما أعاقت هذه النقطة القضايا الجرمية. توجه أصابع الشك إلى أحدهم ربما بعد عدة أشهر على ارتكاب الجريمة. ويتم اكتشاف بقع بنية اللون على ثيابه. لكن أتراها بقع دم أو وحل أو صدأ أو فاكهة أو ماذا؟ لقد حير هذا السؤال أكثر من خبير لمجرد غياب أي اختبار موثوق. أما الآن، فقد أصبح هناك اختبار شيرلوك هولمز وستحل كل المشاكل».

– قال هذا وبريق الفخر في عينيه، ثم رفع يده إلى قلبه وانحنى كمن ينحني لجمهور مصفق من نسج خياله.

– فبادرت إلى الملاحظة وقد فأجأتني حماسته: «إنك تستحق التهنئة».

– «خذ مثلاً قضية فون بيشوف في فرانكفورت العام الماضي. لكان شُنق بالتأكيد لو كان هذا الاختبار موجوداً. ثم قضية ماسون في برادفورد ومولير الشهير ولوفيفر في مونبولييه وشمشون في نيو أورليانز. والسبحة طويلة..».

– ضحك ستمفورد وقال: «إنك على ما يبدو دليل متجول للجريمة. وما رأيك بكتابة مقال عن الموضوع تحت عنوان «أخبار الشرطة من الماضي».

– قال شيرلوك هولمز: «فكرة سديدة خاصة للقراء».

– أردف ستمفورد: «لقد أتينا في مهمة. إن صديقي يبحث عن مسكن. وبما أنك كنت تتذمر من عدم إيجاد شريك لك في الغرفة، فكرت في تعريفكما على بعضكما».

– بدا شيرلوك هولمز مرحباً بالفكرة: «ثمة شقة في شارع بيكر قد تناسبنا. أمل ألا تزعجك رائحة التنباك».

– «أنا نفسي مدخن».

– «جيد. أحتفظ ببعض المواد الكيميائية وأجري حتى بعض

التجارب. هل من مانع لديك؟».

– «لا، إطلاقاً».

– «فلنر سيناتي الأخرى؟ تجتاحني الكآبة أحياناً فلا أتفوه بكلمة لأيام. أتركني وشأني في هذه الحال وسرعان ما تتحسن حالتي. جاء دورك الآن».

– قلت شارحاً: «أنا أحتفظ بجرو ذكر وتزعجني الشجارات لأنها توتر أعصابي، كما أني كسول جداً. ولدي سيئات أخرى عندما أكون في أحسن حالاتي، لكني أكتفي بهذا القدر الآن».

– «سوي الأمر إذاً – هذا إن أعجبتك الغرف».

– «ومتى نراها؟»

– «غداً ظهراً نذهب معاً ونسوي المسألة».

– غادرنا تاركين إياه وسط مواده الكيميائية وعدنا أدراجنا إلى فندقي.

– وتبادر فجأة سؤال إلى ذهني: «على فكرة، هلا شرحت لي كيف عرفت أني آتٍ من أفغانستان؟»

– علت ابتسامة ساحرة ثغر رفيقي، وقال: «كثيرون أرادوا مثلك

أن يكتشفوا سر قدرته على اكتشاف الأمور».

– «إنه لأمر محير فعلاً! لكن كما يقال: «إن دراسة الإنسان هي أفضل طريقة لدراسة الإنسانية».

– ثم ودعت رفيقي ودخلت الفندق.

– التقينا في اليوم التالي كما كان متفقا وتفحصنا الغرف في الرقم ٢٢١ب شارع بيكر. كانت الشقة مؤلفة من غرفتي نوم مريحتين وغرفة جلوس واحدة فسيحة مجهزة بأثاث جميل تنيرها نافذتان واسعتان. وقد أبرمنا العقد فوراً بحيث نقلت أمتعتي في الليلة نفسها وتبعني شيرلوك هولمز في صباح اليوم التالي. وهكذا حططنا رحالنا شيئاً فشيئاً وبدأنا نتأقلم مع مسكننا الجديد.

– لم يكن من الصعب العيش مع هولمز. فهو رجل هادئ ومنتظم. ونادراً ما كان يطيل السهر أكثر من العاشرة ليلا وكان يتناول فطوره ويخرج يومياً قبل أن أصحو. وكان يمضي أحياناً اليوم بكامله في مختبر الكيمياء أو في غرف التشريح أو في نزهات طويلة في أعماق المدينة. ولا شيء يضاهي نشاطه وحيويته عندما يلبس بزة العمل؛ لكن نوبة كانت تصيبه من حين إلى آخر فكان يتمدد على الأريكة في غرفة الجلوس

وبالكاد يتفوه بكلمة أو يحرك ساكناً من الصباح حتى المساء.

– مرت الأسابيع وفضولي لأفهم أهدافه في الحياة يزداد يوماً بعد يوم. قد يعتبر القارئ أني غير نافع لشيء نظراً إلى فضولي المفرط ومحاولاتي اليائسة لتخطي تردده في إطلاعي على أسراره. لكن قبل الحكم عليَّ، تذكروا كم أن حياتي تفتقر إلى أي هدف أو أي شيء يلفت انتباها. وقد أمضيت وقتاً طويلاً أحاول تبديد الغموض الذي يكتنف حياة رفيقي.

– فعلمت أنه لا يدرس الطب. إلا أن ولعه ببعض الدراسات كان ملفتاً لدرجة أن معارفه كانت واسعة في بعض المجالات إلى حد أذهلني. ولا شك أن أحداً ما كان ليجتهد مثله أو يتوخى هذه الدقة في المعلومات لولا سعيه وراء هدف محدد.

– كان جهله يوازي معرفته. إذ غابت عنه أشياء كثيرة في الأدب المعاصر والفلسفة والعلوم السياسية. وكم ذهلت عندما اكتشفت صدفة أنه لا يعرف نظرية كوبرليك وتكوين النظام الشمسي.

– كانت فرصة سانحة لأسأله عن طبيعة عمله لكن شيئاً ما في تصرفاته أفهمني أن السؤال في غير محله الآن. ورحت أراجع في ذهني النقاط التي أبدى فيها تفوقه. وتناولت قلماً لأدونها على ورقة. فحصلت على معلومات مضحكة على الشكل التالي:

شيرلوك هولمز – حدود إمكاناته:

١ – معرفته في الأدب – صفر.

٢ – معرفته في الفلسفة – صفر.

٣ – معرفته في علم الفلك – صفر.

٤ – معرفته في العلوم السياسية – ضعيفة.

٥ – معرفته في علم النبات – متقلبة.

٦ – معرفته في الجيولوجيا – عملية لكن محدودة.

٧ – معرفته في الكيمياء – عميقة.

٨ – معرفته في علم التشريح – دقيقة لكن مجتزأة.

٩ – معرفته في أدب التشويق – هائلة. يبدو أنه يعرف أدنى التفاصيل في أي فظاعة ارتكبت في هذا القرن.

١٠ – يحسن العزف على الكمان.

١١ – خبير في المبارزة بالهراوة والسيف والملاكمة.

١٢ – يتمتع بمعرفة عملية بالقانون البريطاني.

إلا أني فضلت في النهاية رمي هذه اللائحة إلى النار.

اعتقدت في الأسبوع الأول أن رفيقي مثلي، لا أصدقاء له. لكني اكتشفت الآن أن معارفه كثيرون في شتى طبقات المجتمع: السيد ليستراد وشابة وزائر آخر ورجل أنيق أجرى مقابلة معه وعتال في السكة الحديدية. وكان شيرلوك هولمز يتوسل إليَّ لاستعمال غرفة الجلوس بينما آوي أنا إلى غرفتي. إلا أنه لطالما اعتذر عما يسببه لي هذا من إزعاج. وقال: «عليَّ أن أستعمل هذه الغرفة لأمارس عملي وهؤلاء الزوار هم زبائني».

فرصة ثانية لسؤاله عن طبيعة عمله ومرة جديدة خانتني الشجاعة.

في الرابع من آذار (مارس)، صحوت أبكر من المعتاد ولاحظت أن شيرلوك هولمز لم ينه فطوره بعد. فتناولت مجلة من على الطاولة محاولاً إمضاء بعض الوقت. وقد وضعت علامة على عنوان إحدى المقالات وكان من الطبيعي أن تثير فضولي لتصفح المقال.

عنوان طموح «كتاب الحياة» يحاول المؤلف من خلاله أن يظهر أن الإنسان الدقيق الملاحظة قد يتعلم من خلال الفحص الدقيق والمنتظم كل ما يعترض طريقه. تحليل متراص ومكثف إلا أن الاستنتاجات بدت لي مبالغاً فيها.

كتب المؤلف يقول: «قطرة ماء واحدة كافية ليستنتج العالم بالمنطق وجود محيط أطلسي أو شلالات نياغارا من دون أن يكون قد رآها أو سمع عنها من قبل. هكذا هي الحياة سلسلة ضخمة يكفي إدراك حلقة واحدة منها لتدركها كلها. وعلم الاستنتاج والتحليل، كغيره من الفنون، يكتسب بالدراسة الطويلة والصبورة، والحياة لا تكفى لبلوغ أسمى درجاته. لكن قبل البحث في النواحى الخلقية والفكرية لمسألة ما، والتى تمثل أكبر الصعوبات، على المفتش أن يفهم أولاً المشاكل الأساسية. وليتعلم كلما التقى بأخٍ له أن يدرك تاريخه من أول نظرة والمهنة أو الصنعة التي يمارسها. فهذا تمرين يعزز قدرات المراقبة ويعلم المرء أين يفتش وعما يفتش.

«يا للتفاهة!» صرخت رامياً المجلة على الطاولة أمامي. «لم يسبق لي أن قرات مثل هذه التفاهات في حياتي».

فسأل شيرلوك هولمز مستوضحاً: «ماذا هناك؟»

«إنه هذا المقال. وأرى أنك قرأته بما أنك وضعت عليه علامة. صحيح إن كتابته محكمة. لكنه أزعجني».

فلاحظ هولمز بهدوء: «أنا من كتبه. أنا رجل تحريات استشاري إذا فهمت قصدي. في لندن العديد من رجال التحري الحكوميين والكثير من رجال التحري الخاصين. عندما يحتاجون إلى مساعدة، يلجأون إليَّ، فأعيدهم إلى الطريق الصحيح. يكفي أن يزودوني بالإثباتات كي أنجح في تصويب الأمور بفضل معرفتي الواسعة بتاريخ الجرائم».

«أتعني أنك قادر على فك أي لغز من دون أن تغادر غرفتك، بينما يعجز غيرك عن ذلك رغم اطلاعهم على أدنى التفاصيل؟»

«تماما. فلنقل إني أملك إلهاما معينا. والمراقبة هي طبيعتي الثانية. فوجئت مثلا عندما قلت لك في أول لقاء لنا أنك عائد من أفغانستان».

«لا شك أن أحدهم أطلعك على الأمر».

«إطلاقا. عرفت أنك عائد من أفغانستان. فبفضل خبرتي الطويلة، من السهل الغوص في الأفكار المتسلسلة في ذهني والتوصل إلى هذا الاستنتاج. لكن العملية بأكملها لم تستغرق أكثر من بضع ثوان».

أجبت باسماً: «يبدو أمراً سهلاً ما تقوله. تذكرني بشخصية دوبين للكاتب إدغار ألين يو. لم أكن أتصور أن هذه الشخصيات موجودة

فعلاً خارج القصص».

توجهت نحو النافذة ورحت أراقب الحركة في الشارع. وقلت لنفسي: «لا شك أنه إنسان ذكي جداً لكنه مغرور جداً أيضاً».

قاطعني قائلاً: ليست هناك جرائم ولا مجرمين في هذه الأيام. فما جدوى العقل في مهنتنا؟ أعرف أن لي عقلاً لأصبح مشهوراً. ولم يسبق لأي كان قبلي أو. الآن أن أجرى الدراسات التي أجريتها ولا تحلى بالمهارة الطبيعية التي أتحلى بها للتحري عن الجرائم. ما الفائدة؟ فلا جرائم للتحري عنها».

مللت حديثة الطنان هذا فارتأيت تغييره.

أشرت إلى مارٍ يسير ببطء على الجهة الأخرى من الطريق ينظر بقلق إلى الأرقام. وكان يحمل مغلفاً أزرق كبيراً هو رسالة من دون شك. فسألت: «عما تراه يبحث؟»

أجاب شيرلوك هولمز: «أتعني الرقيب المتقاعد في البحرية؟» افتكرت في الحال: «إنه يعرف تماماً أنه يستحيل عليَّ التحقق مما قاله».

لكن سرعان ما لفت الرقم على بابنا انتباه الرجل، ثم دخل غرفتنا

وسلم الرسالة لزميلي، إنها فرصتي لأضع حداً لغروره. فسألت بصوت خافت: «هل لي أن أسأل عن وظيفتك؟»

«وسيط، سيدي».

«وقبلاً؟»

«رقيب، سيدي، في فوج المشاة في البحرية الملكية. هل من جواب؟ حسناً سيدي».

طقطق قدميه معاً، وألقى التحية، ثم غادر.

لغز وادي بوسكومب

– جلست وزوجتي لتناول الفطور ذات صباح، عندما أحضر لي الخادم برقية من شيرلوك هولمز جاء فيها:

– «أيمكنك التخلي عن يومين أو أكثر؟

لقد اتصلوا بي للتو من غرب إنجلترا بشأن مأساة وادي بوسكومب. يسرني لو ترافقني. فالمناخ جميل والمناظر رائعة. الانطلاق من بادنغتون قرابة الحادية عشرة والربع».

– من فوائد تجربتي في أفغانستان أنها جعلتني مسافراً جاهزاً أبداً وعلى أهبة الاستعداد دائماً. ولم تكن متطلباتي كثيرة بحيث استقليت العربة في غضون وقت قصير، وحقيبتي معي في طريقي إلى محطة بادلغتون. هناك رأيت شيرلوك هولمز يروح ويجيء في المحطة.

– قال مرحباً: «يسرني أنك أتيت، واتسون، فأنا أفضل رفقة من

يمكنني الاتكال عليه. هلا حجزت المقعدين كي أحضر البطاقتين؟»

– سألني لما عاد: «هل سمعت شيئاً عن القضية؟»

– «لا شيء. لأني لم أطالع الصحف منذ أيام».

– «الواقع أن الصحافة اللندنية لم تعط كامل التفاصيل. وقد تصفحتها جميعاً لأستخرج منها أدق التفاصيل. تبدو، حسب ما توفر لي من معلومات، إحدى تلك القضايا السهلة الممتنعة».

– «لكن هذا متناقض قليلاً».

– «متناقض لكنه صحيح. فكلما كانت الجريمة عادية ومبتذلة، صعب حلها. وقد وجهت أصابع الاتهام في هذه القضية إلى ابن الضحية».

– «جريمة قتل إذاً؟»

– «على الأرجح، لن أسلم بأي شيء ما لم أر بأم العين. سأشرح لك واقع الأمور.

– «وادي بوسكومب مقاطعة قريبة من روس في هيرفورد شاير، السيد جون تورنر هو أكبر ملاكي الأراضي بعدما جنى ثروته في أستراليا وعاد قبل سنوات إلى بلاده. وقد ترك إحدى مزارعه وهي

مزرعة هاثرني للسيد تشارلز ماكارثي الذي كان هو الآخر في أستراليا حيث التقى الرجلان. وبما أن تورنر هو الأغنى، استأجر ماكارثي أراضيه لكنه بقي على ما يبدو على قدم المساواة مع صديقه. كان لماكارثي ابن وحيد يبلغ الثامنة عشرة من العمر ولتورنر ابنة وحيدة في السن نفسها؛ وكلاهما أرملان. ويبدو أنهما فضلا تحاشي مجتمع العائلات الإنجليزية المجاورة واختارا حياة بعيدة عن الأضواء. كان لماكارثي خادمان، رجل وامرأة. أما تورنر فلديه ستة على الأقل. هذا عن الأسرتين. الآن ماذا عن الوقائع؟

– «في ٣ حزيران (يونيو)، أي الإثنين الفائت، غادر ماكارثي منزله في هاثرلي قرابة الثالثة بعد الظهر واتجه إلى بحيرة بوسكومب وهي بحيرة صغيرة في وادي بوسكومب. وكان قد أعلم الخادم بضرورة الاستعجال لأن لديه موعداً هاماً في الثالثة. لكنه لم يعد حياً من ذلك الموعد.

– «تبعد مزرعة هاثرلي عن بحيرة بوسكومب نحو ربع ميل. وقد شاهده شخصان يعبر هذه الطريق. ويجمع الشاهدان على أن السيد ماكارثي كان بمفرده. إلا أن حارس الطرائد يضيف أنه شاهد ابن السيد ماكارثي يمر من هناك بعد بضع دقائق على مرور الوالد، سالكاً

الاتجاه نفسه ومعه سلاح. ولم يفكر بالقضية إلى أن سمع في المساء نبأ المأساة التي حصلت.

- «تحيط أشجار كثيفة ببحيرة بوسكومب مع فسحة صغيرة من العشب والقصب عند الأطراف. وصادف أن كانت بيشنس موران، وهي فتاة في الرابعة عشرة من العمر وابنة حارس عقار وادي بوسكومب، تقطف أزهاراً من إحدى الغابات هناك. وقد شاهدت عند طرف الغابة قرب البحيرة السيد ماكارثي وابنه يدور بينهما حديث عنيف على ما يبدو. وهي هربت لشدة خوفها من شجارهما وهرعت إلى أمها تخبرها بما حصل. لكن سرعان ما قاطعها ماكارثي الابن الذي أتى مسرعاً زاعماً أنه عثر على والده ميتاً في الغابة طالباً المساعدة. بدا شديد التوتر ولا يحمل معه سلاحه أو قبعته فيما الدم يلطخ كمه الأيمن. تبعوه إلى الغابة فوجدوا والده جثة هامدة ممددة على العشب قرب البحيرة. ومن الواضح أنه ضرب على رأسه تكراراً بسلاح ثقيل وكليل. ووجد سلاح ابنه على بعد خطوات من الجثة. فكان من الطبيعي في ظل هذه الظروف أن يتم إلقاء القبض فوراً على الابن الذي اتهم «بالقتل المتعمد» نهار الثلاثاء ومثل نهار الأربعاء أمام

محكمة روس التي أحالت القضية إلى المحكمة العليا. هذه باختصار أبرز الوقائع كما عرضت على المحقق وفي محكمة الشرطة».

– علقت قائلاً: «من الواضح أن كل الإثباتات الظرفية تشير إلى مجرم واحد».

– «إن الإثباتات الظرفية مخادعة للغاية. قد تشير على ما يبدو إلى أمر معين لكن يكفي النظر إليها من منظار مختلف حتى نراها تشير في اتجاه مختلف كلياً. لكن العديد من الجيران، لا سيما الآنسة تورنر، يؤمنون ببراءة الشاب، وقد كلفوا المفتش ليستراد النظر في القضية. إلا أنه أحالها إليّ. وإذا برجلين في منتصف العمر سافرا غرباً بسرعة خمسين ميلاً في الساعة بدل أن يتناولا فطورهما بهدوء في المنزل».

– قلت: «أخشى ألا تكون الوقائع واضحة جداً كي تجني أي مكسب من هذه القضية».

– فأجاب ضاحكاً: «ما من شيء أكثر خداعاً من الوقائع الواضحة. لقد برزت نقطة أو نقطتان في التحقيق تستحقان التوقف عندها».

– «ما هي؟»

– «يبدو أنه لم يتم توقيف الشاب مباشرة، بل بعد عودته إلى مزرعة هاثرلي. ولما أعلمه المفتش بأنه موقوف، أجاب أنه توقع هذا. فكان من الطبيعي أن تبدد هذه الملاحظة أي شكوك قد تكون علقت في ذهن هيئة التحقيق المحلفة».

– صحت متعجباً: «لكنه اعتراف صريح!»

– «لا، لأنه استتبعه باحتجاج براءة. كما أن إقراره الصريح بالوضع القائم يعني إما أنه رجل بريء أو رجل يتمتع بأقصى درجات ضبط النفس والتماسك».

– هزيت رأسي مضيفاً: لقد شنق الكثيرون بسبب إثباتات أتفه بكثير».

– «صحيح. وكثيرون شنقوا خطأ أيضاً.

– «ما تفسير الشاب لما حصل؟»

– «لا يشجع برأيي كثيراً مناصريه رغم وجود نقطة أو نقطتين مهمتين. ها هو، اقرأه بنفسك».

– تناول من رزمة أوراقه نسخة من صحيفة هيرفورد شاير مشيراً

إلى الفقرة التي روى فيها الشاب البائس ما حصل.

– قال: «أمضيت ثلاثة أيام في بريستول بعيداً عن المنزل، وكنت قد عدت لتوي في صباح نهار الإثنين الماضي الواقع فيه ٣ من الشهر الحالي. لم يكن والدي في المنزل عندما وصلت وأعلمتني الخادمة أنه ذهب إلى روس مع السائس جون كوب. بعد وقت قصير على عودتي، سمعت عجلات مركبة في الباحة الخارجية. نظرت عبر النافذة فرأيته يترجل من العربة ويسرع خارج الباحة من دون أن أرى في أي اتجاه ذهب. تناولت بعدها سلاحي واتجهت إلى بحيرة بوسكومب لزيارة مأربة الأرانب في الجهة المقابلة. التقيت في طريقي حارس الطرائد وليام كرودير كما أشار في شهادته؛ لكني، خلافاً لما قال، لم أكن أتبع والدي لأني لم أكن أعرف أنه أمامي. وعلى مسافة مئة ياردة من البحيرة، سمعت صرخة «كوي!» وهي إشارة بين والدي وبيني. هرعت إلى حيث مصدر الصوت وإذا به واقف عند البحيرة. تفاجأ لرؤيتي وراح يسألني عن سبب قدومي إلى هناك. تلا ذلك حوار حامٍ كاد ينتهي بلكمات لشدة طبع والدي الحاد. قررت عندها العودة إلى المزرعة كي لا تتفاقم الأمور أكثر.

– بالكاد قطعت مئة وخمسين ياردة حتى سمعت صرخة غريبة خلفي حملتني على العودة أدراجي. فوجدت والدي يلفظ أنفاسه الأخيرة على الأرض وفي رأسه جرح بليغ. رميت سلاحي وأخذته بين ذراعي لكنه سرعان ما فارق الحياة. جثوت قربه لدقائق ثم هرعت إلى حارس عقار السيد تورنر لأن منزله هو الأقرب، طالباً النجدة. لم أر أحداً قرب والدي عندما عدت إليه ولست أدري من أين أتت تلك الإصابة. صحيح أنه لم يكن محبوباً جداً بسبب طباعه الباردة، لكن ليس له أعداء على حد علمي. هذا كل ما أعرفه».

– تلا ذلك حوار بين المحقق والشاهد، فضل خلاله الشاهد عدم الإجابة على الكثير من الأسئلة.

– علقت على الموضوع بالقول: «لقد أصاب المحقق في السؤال عن مناداة الوالد ابنه قبل أن يعلم بعودته. كما أن رفض الابن إعطاء تفاصيل عن الحديث الذي دار بينهما، كلها عناصر تلعب دوراً ضد الابن».

– ضحك هولمز بلطف وتمدد على المقعد قائلاً: «أما أنا، فأنظر إلى القضية من منظار آخر هو اعتبار ما يقوله الشاب صحيحاً. وسنرى لاحقاً إلى أين تقودنا هذه الفرضية. لن أتفوه بكلمة بعد الآن عن هذه

المسألة إلى أن نصل إلى ساحة الجريمة. سنتناول الغداء في سويندون التي نصلها بعد ثلث ساعة».

– وصلنا في الرابعة تقريباً بعدما مررنا عبر وادي ستراود الجميل إلى بلدة روس الريفية الخلابة. هناك وجدنا رجلاً بانتظارنا هو ليستراد من اسكوتلند يارد.

– جلسنا نتناول الشاي، فبادر ليستراد إلى القول: «لا شك أنك توصلت إلى استنتاجاتك بعد مطالعة الصحف. لكن من يستطيع رفض إسداء خدمة لامرأة؟

لقد سمعت عند وتري معرفة رأيك مع أني قلت لها مراراً وتكراراً إنك لن تقوى على فعل أكثر مما فعلته أنا. ها قد وصلت عربتها!»

– ما أن أكمل جملته حتى دخلت القاعة أجمل شابة رأيتها في حياتي.

– صرخت مجيلة النظر إلينا نحن الثلاثة: «يسرني مجيئك. أنا واثقة من أن جيمس بريء: نحن نعرف بعضنا منذ الصغر وأنا أعرف كل سيئاته أكثر من أي شخص كان. إنه رقيق ولطيف لدرجة أنه لا يؤذي حشرة. إنه اتهام باطل وتافه بالنسبة إلى من يعرفه حق المعرفة مثلي».

– أجاب شيرلوك هولز: «آمل تبرئته آنسة تورنر. سأبذل ما في وسعي».

– «لكنك اطلعت على البراهين. أتوصلت إلى استنتاجات؟

هل استشفيت فيها منفذاً أو فسحة أمل؟

ألا تعتقد مثلي أنه بريء؟»

– «أظن أن هذا الأمر هو الأكثر احتمالاً».

– فصرخت وقد أمالت رأسها إلى الخلف شاخصة إلى ليستراد:

– «أترى! أسمعت ما قاله! هناك بصيص أمل!»

– «أخشى أن يكون صديقي استعجل الاستنتاج».

– «لكنه على حق. أما بشأن الشجار مع والده، فأنا واثقة من أنه لم يشأ الإفصاح عن مضمونه للمحقق لأن الأمر يتعلق بي».

– سأل هولمز: «ماذا تعنين؟»

– «لا يجدر بي أن أخفى أي شيء الآن. لطالما اختلف جيمس ووالده حولي. فالسيد ماكارثي حريص على عقد قراننا.

لكني وجيمس نحب بعضنا كشقيقين وهو لا يزال شاباً ولم

يختبر الحياة بعد ولم يشأ طبعاً الإقدام على خطوة من هذا النوع. فكانا يتشاجران ولا شك أن هذه كانت إحداها».

– سأل هولمز مجدداً: «وماذا عن والدك؟

هل كان يحبذ هذا الزواج؟»

– «لا، عارضه هو الآخر. وحده السيد ماكارثي كان مصراً عليه».

– «شكراً آنستي على هذه المعلومات. هل لي بلقاء والدك غداً؟

– «أخشى ألا يسمح الطبيب بذلك».

– «الطبيب؟»

– «نعم. فصحة والدي على تراجع منذ سنوات وهذه المأساة أوهنته كلياً. خاصة وأن السيد ماكارثي هو الشخص الوحيد الذي عرف والدي في الأيام الخوالي في فكتوريا».

– «صحيح، فكتوريا! هذه نقطة مهمة».

– «نعم في المناجم».

– «بالضبط؛ في مناجم الذهب حيث جنى السيد تورنر ثروته على ما أظن».

– «تماماً».

– «شكراً آنسة تورنر. لقد قدمت لي مساعدة قيمة».

– «هلا أعلمتني بأي جديد غداً؟

ولا شك أنك ستزور جيمس في السجن. في هذه الحال، قل له يا سيد هولمز إني واثقة من براءته».

– «سأفعل آنسة تورنر».

– «يجب أن أذهب الآن فوالدي مريض جداً. الوداع وليساعدك الله».

– هرعت إلى خارج القاعة تماماً كما فعلت عندما دخلتها وسمعنا العربة تبتعد في الطريق.

– قال ليستراد بعد دقائق صمت قليلة: «إني أخجل بك يا هولمز.

– لِمَ أعطيتها آمالاً خاطئة؟

أنا لست مرهف الإحساس لكن تصرفك وحشي».

– أجاب هولمز: «لأن لي أملاً في تبرئة جيمس ماكارثي. هل حصلت على إذن لزيارته في السجن؟»

– «نعم، لي ولك فقط».

– «هل لدينا متسع من الوقت لأخذ قطار هيرفورد ومقابلته الليلة؟»

– «نعم».

– «حسناً، فلنذهب».

– رافقتهما إلى المحطة ثم تجولت في شوارع البلدة الصغيرة إلى أن عدت في النهاية إلى الفندق، حيث استلقيت على الأريكة وحاولت إلهاء نفسي برواية. لكن فكري كان ينتقل دوماً من الخيال إلى الواقع. فلنفترض أن رواية ذلك الشاب البائس صحيحة، ماذا تراه حصل بين اللحظة التي غادر فيها والده ولحظة عودته بعدما سمع صراخه؟

لا شك أنه أمر فتاك ورهيب. ماذا تراه يكون؟

يجب أن أستفيد من حسي الطبي لمعرفة دلالة طبيعة الإصابة. كانت مجلة البلدة الأسبوعية تتضمن تقريراً حرفياً يشمل شهادة الجراح المعاين التي جاء فيها أن ثالث عظمة جدارية يسرى في الخلف والنصف الأيسر للعظمة القذالية كسرتا من جراء لكمة عنيفة من سلاح كليل. حاولت تحديد الموقع على رأسي، فاتضح لي أنه تلقى ضربة من الخلف.

وهو ما يفيد المتهم بما أنه كان يتحدث مع والده وجهاً لوجه. لكن ماذا لو استدار الرجل العجوز قبل تلقيه الضربة؟

قررت عندها لفت انتباه هولمز إلى هذه النقطة.

– عاد شيرلوك هولمز متأخراً ولوحده إذ بقي ليسترداد في النزل في البلدة.

– جلس ثم قال: «من الضروري جداً ألا تمطر قبل أن نذهب إلى ساحة الجريمة. إلى ذلك، قابلت ماكارثي الابن».

– «هل من جديد؟»

– «إطلاقاً».

– «ألم يستطع تسليط الضوء على أية نقطة؟»

– «ولا أية نقطة. ساورني الشك حتى في أنه ربما يعرف المسؤول ويؤمن له الغطاء اللازم. لكني أصبحت مقتنعاً الآن أن الخبر صعقه مثلنا تماماً. فهو ليس شاباً حذقاً جداً».

– عقبت على كلامه:

«لست أفهم ذوقه إن رفض فعلاً فكرة الزواج بشابة ساحرة مثل الآنسة تورنر».

– «ثمة قصة مؤلمة في هذا الصدد. هذا الشاب متيم بحبها. لكن قبل سنتين تقريباً، وقبل أن يتعرف إليها حق المعرفة إذ كانت تدرس في مدرسة داخلية، تزوج هذا الأحمق بنادلة في بريستول! لم يعلم أحد بالأمر لكن تصور عذابه لاستحالة قيامه بما يبذل نفسه في سبيله. لكنه من رابع المستحيلات الآن.

لذا جُن جنونه لما فاتحه والده في آخر لقاء لهما بأمر طلب الآنسة تورنر. أضف أنه عاجز عن إعالة نفسه ووالده في آن. وقد أمضى الأيام الثلاثة الماضية مع زوجته النادلة في بريستول من دون علم والده.

– «تذكر هذه النقطة لأنها مهمة جداً. لكن بصيص أمل لاح في الأفق عندما علمت الزوجة النادلة من الصحف أنه في مأزق وأنه سيشنق. فكتبت إليه تقول إن رابط الزواج قد انحل بينهما، مما أثلج قليلاً قلب الشاب ماكارثي بعد كل ما عاناه».

– «إذا كان ماكارثي الابن بريئاً، من الفاعل إذاً؟»

– «من يا ترى؟

أريد أن ألفت انتباهك إلى نقطتين مهمتين.

– الأولى أن المغدور كان على موعد مع أحدهم عند البحيرة. هذا الأخير ليس ابنه طبعاً بما أنه كان خارج البلدة والوالد لا يعرف متى يعود. الثانية أن المغدور صرخ «كوي!» قبل أن يعرف أن ابنه عاد. سنبحث الأمور الثانوية غداً».

– طلع الفجر حاملاً معه سماء زرقاء خالية من الغيوم والمطر. وفي تمام التاسعة، وصل ليستراد ودعانا للذهاب معاً إلى مزرعة هاثرلي وبحيرة بوسكومب.

– قال ليستراد: «هناك خبر مهم هذا الصباح. قيل لي إن السيد تورنر مريض جداً وحياته ميؤوس منها».

– فسأل هولمز: «إنه رجل عجوز على ما أظن؟»

– «في العقد السابع لكن حياته في الخارج أرهقته وتراجعت صحته منذ مدة. كما أن عمله أثر عليه سلبا. وهو صديق قديم لماكارثي ومحسن كبير له، إذ قيل لي إنه أعطاه مزرعة هاثرلي من دون مقابل».

– أجابه هولمز: «هذا مثير للاهتمام بالفعل!»

– وصلنا إلى مزرعة هاثرلي بعد وقت قصير. إنها كناية عن بناء

فسيح جميل المظهر مؤلف من طبقتين.

استقبلتنا الخادمة عند الباب وأرتنا، نزولا عند طلب هولمز، الحذاء الذي كان سيدها ينتعله عند مصرعه وحذاء آخر لابنه. بعدما تفحصهما هولمز بدقة، انتقلنا إلى الباحة الخارجية وسلكنا من هناك الطريق المؤدية إلى بحيرة بوسكومب. تغيرت ملامح شيرلوك هولمز كما في كل مرة يستشعر فيها ماذا سيحصل. وما كان أي ممن عرفوا ذلك المفكر والمحلل الصامت في شارع بيكر ليتعرف إليه الآن.

– تقع بحيرة بوسكومب على محاذاة مزرعة هاثرلي وحديقة السيد تورنر الثري الخاصة. دلنا ليستراد على المكان الذي وجدت فيه الجثة. كانت الأرض رطبة لدرجة أن الآثار ظلت بارزة. أما هولمز، فاهتم لأمور كثيرة أخرى وجدها على العشب. فراح يهيم كالكلب يستشم شيئا ما، ثم التفت نحو زميلنا.

– «لم ذهبت إلى البحيرة؟»

– «لأمشطها بالمدمة على أجد سلاحا أو برهانا ما. لكن بالله عليك، كيف...؟»

– «صه! صه! لا وقت لدي. قدمك اليسرى في كل مكان. لكان الأمر أسهل لو وصلت قبل أن يأتوا كقطيع جواميس ويفسدوا كل شيء. هناك ثلاثة مسارات لنفس القدم».

– تناول عندها عدسة مكبرة وتمدد على معطفه المضاد للمياه ليرى بمزيد من الدقة وهو يحدث نفسه أكثر مما يحدثنا.

– «هذه أقدام ماكارثي الابن. مشى مرتين وركض مرة كما تدل عليه الآثار العميقة وعدم وضوح كعب الحذاء. وهذا يؤكد روايته. فهو ركض لما رأى والده على الأرض. وها هي آثار قدمي الوالد وهو يروح ويجيء. لكن ما هذا هنا؟

إنه كعب السلاح بينما كان الابن واقفا يصغي إلى والده. وهذا؟ لدينا هنا حذاء مربع الطرف غير مألوف جدا! يروح ويجيء ثم يروح. لكن من أين أتى؟»

– أخذ هولمز يروح ويجيء متبعا المسار نفسه أو شاذا عنه إلى أن وصلنا إلى حدود الغابة تحت ظل شجرة زان ضخمة هي الأكبر في الجوار.

انحنى هولمز مرة جديدة مصدرا صرخة خافتة علامة الرضى. مكث هناك طويلا يتحقق من الأوراق والقضبان الجافة ويجمع في مغلف ما ظننته غبارا، ويتفحص بواسطة عدسته المكبرة ليس فقط الأرض بل كذلك قشرة الشجرة قدر ما استطاع. كما عاين بدقة حجرا مثلما مرميا بين الطحالب. ثم اتبع ممرا في الغابة أوصله إلى الطريق العام حيث اختفت الآثار.

– قال بلهجته المعتادة: «أعتقد أن هذا المنزل الرمادي إلى اليمين هو منزل الحارس. سأذهب إلى هناك وأكلم موران، وربما أدون بعض الملاحظات. ثم أعود لتناول الغداء معا. انتظروني في العربة، سأعود حالا».

– بالفعل، عاد إلى العربة بعد نحو عشر دقائق ورجعنا سويا إلى روس، ولا زال هولمز يحمل الحجر الذي وجده في الغابة.

– أشار إليه قائلا: «لعله يهمك، ليستراد. إنه أداة الجريمة».

– «لكنه لا يحمل أية علامات».

– «لا، ليست هناك أية علامات».

– «ما البرهان إذاً؟»

– «بدأ العشب ينمو من تحته. لقد وضع هناك منذ أيام قليلة ولا شيء يدل من أين أخذ. كما أنه يطابق الإصابة وما من أثر لسلاح آخر».

– «والقاتل؟»

– «رجل طويل القامة، عسراوي، يعرج برجله اليمنى، وينتعل حذاء صيد ذا نعل سميك ويلبس معطفا رماديا، ويدخن السيجار الهندي، ويستعمل حامل سيجار، ويحمل مطواة جيب. هناك مواصفات كثيرة أخرى لكن هذه كافية لمساعدتك في بحثك».

– فضحك ليستراد وأجابه: «لا زلت أشك في الأمر».

– أجاب هولمز بهدوء:

«سوف نرى. أنت اعمل حسب طريقتك الخاصة، وأنا حسب طريقتي. سأكون منشغلا بعد ظهر اليوم، ولربما عدت إلى لندن على متن قطار المساء».

– «قبل إنهاء القضية؟»

– «القضية منتهية».

– «واللغز؟»

– «محلول».

– «من هو القاتل إذاً؟»

– «الرجل الذي وصفته لتوي».

– «وهويته؟»

– «ليس من الصعب تحديدها في هذه البلدة الصغيرة».

– هز ليستراد كتفيه مجيبا: «أنا رجل عملي ولن أجوب البلدة كلها بحثا عن ذلك الرجل العسراوي الأعرج».

– أجاب هولمز بهدوء: «حسنا، فعلت ما يتوجب عليَّ. الوداع. سأكتب لك قبل أن أغادر».

– أوصلنا ليستراد إلى نزله وعدنا إلى الفندق حيث كان العشاء بانتظارنا. مكث هولمز صامتا مستغرقا في أفكاره والغم باد على وجهه كمن وقع في مأزق.

– «اسمعني جيدا يا واتسون. اجلس في هذا الكرسي ودعني أعظك قليلا. أنا حائر في أمري وتهمني نصيحتك. أشعل سيجارا ودعني أشرح لك».

– «تفضل».

– «لقد لفتت نقطتان انتباهنا فورا في رواية ماكارثي الابن. الأولى هي أن والده صرخ «كوي!» على حد قوله، قبل أن يراه. والثانية هي ذكر والده كلمة «rat (الجرذ)»، مما يعني أنه تفوه ببضع كلمات، لكن الابن لم يفهم منها إلا هذه».

– «ماذا عن «كوي!»؟»

– «من الواضح أنه لم يعن ابنه أبدا. و«كوي!» صرخة أسترالية محضة يستخدمها الأستراليون في ما بينهم. يحتمل جدا أن يكون الشخص الذي ضرب معه موعدا عند بحيرة بوسكومب قد عاش هو الآخر في أستراليا».

«و «rat الجرذ»؟»

– تناول شيرلوك هولمز عندها ورقة من جيبه وفتحها على الطاولة.

– «هذه خارطة مستعمرة فكتوريا». ثم غطى بيده قسما منها سائلا: «ماذا تقرأ؟»

– «أرات».

– رفع يده وسأل: «والآن؟»

– «بلارات».

– «بالضبط. هذه هي الكلمة التي تلفظ بها المغدور والتي لم يسمع الابن إلا نهايتها. إنما كان يحاول قول اسم قاتله من «بلارات».

– «مذهل!»

– «بل واضح، لقد انتقلنا من الغموض إلى التحديد: إنه رجل أسترالي من بلارات يلبس معطفا رماديا».

– «أصبت».

– «رجل له منزل في المقاطعة نظرا إلى استحالة بلوغ البحيرة إلا عبر المزرعة أو العقار، حيث لا مجال لتغلغل الغرباء».

– «صحيح».

– «كما أن آثار الرجل اليمني أقل وضوحا من آثار الرجل اليسري. مما يعني أنه أعرج».

– «وكيف عرفت أنه عسراوي؟»

– «حتى أنت فاجأتك طبيعة الإصابة التي أشار إليها تقرير الجراح.

لقد سددت الضربة من الخلف مباشرة لكن على الجهة اليسرى. أيعقل هذا ما لم يكن المرتكب عسراويا؟

وقف خلف الشجرة بينما الوالد والابن يتحدثان. حتى أنه دخن سيجارا وجدت رماده على الأرض. بحثت بعد ذلك في الجوار فوجدت العقب بين الطحالب حيث أطفأه. كان سيجارا هنديا ملفوفا في روتردام».

– «وحامل السيجار؟»

– «من الواضح من عقب السيجار أنه لم يضعه في فمه. مما يعني أنه كان يستعمل حامل سيجار. فالطرف مقطوع وليس مقضوما. إلا أنه لم يقطع بدقة، فاستنتجت أنه يحمل معه مطواة كليلة».

– قلت: «لقد علق ذلك الرجل في شباكك يا هولمز. المذنب هو..».

– كان نادل الفندق يعلن وصول زائر:

«السيد جون تورنر».

– دخل رجل ذو وجه غريب مؤثر. بدت عليه علامات الوهن بسبب مشيته البطيئة العرجاء وكتفيه المحنيتين. أدركت حالا أنه يعاني

من مرض عضال ومزمن.

– خاطبه هولمز بلطف:

«تفضل بالجلوس على الأريكة. أوصلتك رسالتي؟»

– «نعم، أعطاني إياها الحارس. قلت إنك تريد مقابلتي هنا تجنبا للفضيحة».

– «أفترض أن الناس سيسيئون الكلام إذا ما حضرت إلى المزرعة».

– «لم تود رؤيتي؟» قال هذا ناظرا إلى صديقي بعينين ملأهما اليأس، كمن يعرف الجواب سلفا.

– رد هولمز على نظرته أكثر منه على كلماته:

«نعم. أعرف كل شيء عن ماكارثي».

– أخفى الرجل العجوز وجهه الباكى بين يديه.

– «فليساعدني الله! لكني لن أرضى أنه يصيب الشاب أي مكروه. أقسم أني سأعترف بالحقيقة لو جاء الحكم ضده».

– «يسرني سماع هذا».

– «لكنت تكلمت الآن لولا ابنتي العزيزة. سينفطر قلبها إن

علمت أني موقوف».

– أجاب هولمز مطمئنا: «قد لا نضطر إلى ذلك».

– «ماذا!»

– «لست عميلا رسميا. وابنتك هي التي طلبت حضوري إلى هنا وأنا أعمل لما فيه مصلحتها. لكن يجب إطلاق سراح ماكارثي الابن».

– «إني على شفير الموت وأعاني من داء السكري منذ سنوات عديدة. يقول الطبيب إن أيامي باتت معدودة. لكني أفضل الموت على فراشي منه في زنزانة».

– نهض هولمز عندها وجلس إلى الطاولة. ثم تناول قلما ورزمة أوراق شارحا:

«قل لنا الحقيقة وحسب. سأدون الوقائع ثم توقع الورقة ويشهد واتسون على ذلك. لن أستعمل هذا إلا في الحالة القصوى لإنقاذ ماكارثي الابن. أعدك بأن لا أستعمله إلا لهذا الغرض».

– «أنت لم تعرف ذلك الرجل. وكان الشيطان تجسد فيه. لقد وقعت في قبضته مدة عشرين سنة فدمر حياتي. سأروي لك القصة

منذ البداية.

– «كان ذلك في مطلع الستينيات في المناجم. كنت آنذاك فتى متهورا ومندفعا، أي باختصار ما تسميه هنا قاطع طريق. كنا مجموعة مؤلفة من ستة أشخاص نعيش أحرارا من أية قيود. بلاك جاك من بلارات هي كنيتي ولا زلنا نعرف في المستعمرة بزمرة بلارات.

– أتت ذات يوم قافلة محملة بالذهب من بلارات إلى ملبورن فانتظرناها وسطونا عليها. كنا ستة مقابل ستة، قتل ثلاثة منا في الهجوم. أما أنا فصوبت مسدسي على سائق الحافلة، ماكارثي بنفسه. ليتني أجهزت عليه عندها، لكني لم أفعل بالرغم من عينيه الصغيرتين الشريرتين الشاخصتين إليَّ كمن يريد أن يتذكر أدنى تفاصيل وجهي. هكذا استولينا على الذهب وأصبحنا أثرياء وعدنا إلى إنجلترا من دون أن نثير شكوك أحد.

– «هناك قررت الانفصال عن زملائي وبدء حياة هادئة ومحترمة. فاشتريت هذا العقار الذي صادف أن كان معروضا للبيع وباختصار، فتحت صفحة جديدة وحاولت جاهدا التعويض عما مضى.

– «سارت الأمور على أحسن ما يرام إلى أن أحكم ماكارثي قبضته عليَّ.

– «قصدت ذات يوم البلدة بشأن استثمار معين، فالتقيته في شارع ريجنت في حالة يرثى لها. أمسك بذراعي قائلا: ها قد التقينا مجددا يا جاك. سنكون كأسرة واحدة.

نحن لسنا إلا شخصين فقط، أنا وابني وعليك رعايتنا. وإلا... تذكر أن إنجلترا بلد يعلي شأن القانون ولن يصعب العثور على شرطي في أي وقت من الأوقات.

– فحضرا إلى المقاطعة الغربية وعاشا مجانا في أفضل أراضي. تفاقمت الأمور عندما كبرت أليس، لأنه أدرك أني أخشى أن تكتشف هي أمري أكثر مما أخشى الشرطة.

كان يحصل على كل ما يريده من دون مناقشة، الأرض والمال والمنازل؛ إلى أن طلب مؤخرا شيئا لا يمكنني التخلي عنه. طلب أليس.

– «رفضت ليس لعلة في الشاب بل لأن دم أبيه يسري في عروقه، فطفح الكيل. قررت مقاومته، فهددني. استفزيته أن يفعل ما يشاء. وقررنا أن نلتقي عند البحيرة في منتصف الطريق بين منزلينا كي نناقش الموضوع.

– لما وصلت إلى هناك، وجدته يتحدث إلى ابنه. فدخنت سيجارا

منتظرا خلف الشجرة إلى أن يفرغا من الكلام. لكن توتري ازداد عندما سمعت الكلام الذي دار بينهما.

كان يحث ابنه على الزواج بابنتي مهما كان رأيها وكأنها إحدى تلك الساقطات على الطرقات. فجن جنوني لمجرد التفكير أن أثمن شيء عندي ليصبح في عهدة هذا الرجل. أدركت عندها أن مصيري مكتوب عليَّ. أنا الفاعل سيد هولمز، وإن خيرت، سأعيد الكرة من دون تردد».

– أجاب هولمز بينما الرجل يوقع التصريح: «لست أنا من يحاكمك، وآمل ألا نحتاج إلى هذا الاعتراف أبدا».

– «آمل ذلك أيضا، سيدي. ماذا تنوي أن تفعل الآن؟»

– «لا شيء، نظرا إلى حالتك الصحية. فلا أخفي عنك أنك ستمثل قريبا أمام محكمة أعلى من المحاكم العليا الدنيوية. لكني سأحتفظ باعترافك، وفي حال أدين ماكارثي، سأستعمله مرغما. وإلا، أعدك ألا يراه أحد وأن يبقى سرا دفينا، على حياتك ومن بعد موتك».

– حيانا الرجل باحترام:

«الوداع إذاً». ثم غادر الغرفة ببطء وبخطى متثاقلة مترنحة.

– بعد دقائق صمت طويل قال هولمز: «فليساعدنا الله! لم يتلاعب القدر بمساكين عزل يا ترى؟»

– برأت المحكمة العليا جيمس ماكارثي بناء على اعتراضات قدمها هولمز وعرضت على هيئة الدفاع.

أما تورنر الأب، فعاش سبعة أشهر بعد اللقاء معنا. الآن وقد مات، من المحتمل جدا أن يحيا الابن والابنة حياة سعيدة معا، بعيدا عن الغمامة السوداء التي عكرت صفو ماضيهما.

تمت

مغامرات شيرلوك هولمز

مغامـــرة
الوهج الفضى

تأليف

آرثر كونان دويل

حالما جلسنا نتناول الفطور معاً ذات صباح، بادر هولمز إلى القول:

(أخشى أن عليَّ الانصراف).

(إلى أين؟)

(إلى دارتمور، إلى بايلاند الملك تحديداً).

لم أتفاجأ في الواقع. بل كنت أتساءل لماذا لم يشارك بعد في هذه القضية المثيرة التي كانت شغل الناس الشاغل في كل أنحاس إنجلترا. وقد أمضى صديقي يومه يصول ويجول في الغرفة يتفقد آخر إصدارات الجرائد التي أرسلها لنا وكيل الأنباء لدينا، لكنه لزم الصمت طوال النهار.

مشكلة وحيدة كانت قادرة على تحدي قدراته التحليلية وهي اختفاء الجواد الأوفر حظاً في كأس ويسكس ومقتل مدربه المروع.

ولما أفصح عن نيته في التوجه إلى ساحة المأساة، كان هذا ما

توقعته وجل ما تمنيته.

قلت:

(يسعدني أن أرافقك إلى هناك إذا لم تمانع).

(سأكون ممتناً لك كثيراً إذا فعلت يا عزيزي واتسون).

هكذا فعلت وما هي إلا ساعة واحدة حتى وجدتني على متن مقطورة من الدرجة الأولى تقلنا معاً إلى إكستر.

(أعتقد أنك تعرف القليل عن مقتل جون ستراكبر واختفاء الوهج الفضي؟).

(فقط ما قرأته في صحيفتي تلغراف وكرونكلز).

(إنها مأساة غير مألوفة وغير مكتملة وتهم كثيرين من الناس لدرجة أننا نعاني من وجود فيض من الرهانات والتكهنات والفرضيات. تلقيت برقيتين مساء يوم الثلاثاء من الكولونيل روس، صاحب الجواد، والمفتش غريغوري الذي يحقق في القضية والذي دعاني إلى التعاون معه).

أجبت متعجبا:

(مساء يوم الثلاثاء! ونحن الآن في صباح يوم الخميس. لماذا لم تذهب إلى هناك بالأمس؟

(الواقع أني ظننت أن أشهر جواد في إنجلترا لن يبقى طويلاً محجوباً عن الأنظار لاسيما في منطقة غير مكتظة كدارتمور.

وتوقعت أن أتلقى في أية ساعة أمس نبأ يفيدني أنه تم العثور على الجواد وأن سارقه هو أيضاً قاتل جون ستراكير. لا أعتقد مع ذلك أن نهار الأمس كان مضيعة للوقت).

(أي أنك توصلت إلى نظرية؟)

(فلنقل إني أملك أهم المعطيات وسأطلعك عليها أيضاً.

أسندت ظهري على الوسادات وأنا أدخن السيجار بينما انحنى هولمز إلى الأمام بجبهته العريضة يعدد على أصابع يده اليسرى التفاصيل ليعطيني لمحة سريعة عن مجريات الأحداث التي استوجبت هذه الرحلة.

قال ينتمي الوهج الفضي إلى مجموعة إيزونومي وله سجل حافل بالانتصارات كما أسلافه.

وكان الأوفر حظاً بالفوز بكأس ويسكس عندما حصلت المأساة، فقد بلغت المراهنات عليه ثلاثة مقابل واحد. من الواضح إذاً أنه كان من مصلحة الكثيرين الحؤول دون وصول الوهج الفضي إلى خط الوصول في نهاية السباق يوم الثلاثاء التالي.

لقد تنبه المعنيون في بايلند الملك حيث تقع حظيرة التدريب التابعة للكولونيل إلى هذا الأمر. واتخذت كل الإجراءات اللازمة لحماية الجواد. أما المدرب، جون ستراكير، فهو فارس متقاعد كان يعمل لحساب الكولونيل روس خمس سنوات كفارس، ومنذ سبع سنوات كمدرب. وكان يشرف على ثلاثة فتيان نظراً إلى صغر حجم الإسطبل الذي لا يضم إلا أربعة جياد.

وقد اعتاد أحد الفتيان أن يبيت الليل في الإسطبل بينما ينام الآخران في العلية. أما جون ستراكير فمتأهل ويسكن في فيلا على بعد مئتي ياردة تقريباً من الإسطبل. ويقع على مسافة ميلين تقريباً

أكبر إسطبل للتدريب في كابلتون لصاحبه اللورد باكواتر وبإدارة سيلاس براون.

أما ما تبقى من المساحة فأراض غير مأهولة إلا من بعض الغجر الرحل. هكذا كان الوضع عشية وقوع الحادثة.

أقفل الإسطبل في تلك الليلة في تمام التاسعة. وذهب اثنان من الفتيان إلى منزل المدرب لتناول العشاء في المطبخ بينما بقي الثالث ويدعى نيد هانتر في الإسطبل. حضرت بعد قليل الخادمة إديت بكستير تحمل له العشاء.

ولما وصلت إلى بعد ثلاثين ياردة من الإسطبل، ظهر رجل في عتمة الليل ونهرها أن تتوقف.

وقد ذهلت لما رأته يتقدم إلى مساحة الضوء الذي ألقاه المصباح لدرجة شحوب وجهه وتوتره. وقدرت أنه يبلغ الثلاثين من العمر أو أكثر.

سألها:

(هلا قلت لي أين أنا الآن؟ كنت قد قررت أن أبيت ليلتي هنا

عندما رأيت نور مصباحك).

(أنت على مقربة من إسطبلات تدريب بايلند الملك).

(أصحيح! يا لحسن حظي! أعتقد أن فتى الإسطبل ينام هناك كل ليلة. ولعلك تحملين له العشاء الآن).

أخرج عندها ورقة بيضاء مطوية من جيب معطفه قائلاً:

سلمي هذه للفتى الليلة وأعدك أن تحصلي على أجمل ثوب حلمت به).

ارتابت الخادمة به وتركته مسرعة إلى النافذة التي كانت تمرر الطعام من خلالها للفتى. وجدتها مفتوحة فيما جلس هانتر عند الطاولة الصغيرة في الداخل.

وما أن راحت تروي له ما حصل حتى ظهر الرجل الغريب خلفها مجدداً.

قال وهو ينظر عبر النافذة:

(مساء الخير).

(ما سبب حضورك إلى هنا؟).

(سبب قد يدخل شيئاً ما إلى جيب. لديكم جوادان مشاركان في كأس ويسكس، الوهج الفضي وبايار.

أعطني المعلومة الصحيحة ولن تكون خاسراً).

(سأريك كيف نعامل أمثالك في بايلند الملك).

نهض من مكانه وهرع إلى الكلب يفكه، جال الفتى حول الإسطبل كله لكنه لم يجد له أثراً).

سألت مستوضحاً:

مهلاً، هل ترك الفتى الباب مفتوحاً عندما خرج بصحبة الكلب؟)

(ممتاز يا واتسون!

ممتاز!

لقد أقفل الفتى الباب قبل أن يخرج. والنافذة ضيقة بحيث يستحيل أن يمر إنسان عبرها.

انتظر هانتر عودة زميليه كي يبعث برسالة إلى المدرب يعلمه بما حصل. وفي الواحدة فجراً، استيقظت السيدة ستراكير فوجدت زوجها يرتدي ملابسه ويستعد للذهاب إلى الإسطبل لتفقد الجياد. وفي السابعة صباحاً، لم يكن زوجها قد عاد.

فارتدت ملابسها على عجل واستدعت الخادمة وتوجهت بدورها إلى الإسطبل. كان الباب مشرعاً وفي الداخل هانتر جاثياً على كرسي في حالة ذهول مطبقة ولا أثر للوهج الفضي ولا لمدربه.

لم يسمع الفتيان شيئاً خلال الليل. وبدا من الواضح أن هانتر تحت تأثير مخدر فعال. بقي أمل وحيد بالعثور على المدرب وجواده بجريان التمارين. لكن ما أن وصلوا إلى الهضبة قرب المنزل حتى رأوا شيئاً أنذرهم بحصول مأساة.

فقد شاهدوا معطف جون ستراكير بين الشجيرات على بعد ربع ميل تقريباً من الإسطبل. ووجدوا بعد ذلك مباشرة جثة المدرب المسكين وقد تلقى على رأسه ضربة قاسية من سلاح حاد إضافة إلى جراح أخرى في فخذيه.

واتضح أنه قاوم المعتدين عليه مقاومة شرسة بما أنه كان يحمل في يده اليمنى سكيناً صغيراً ملطخاً بالدماء حتى المقبض وفي يده اليسرى ربطة عنق حريرية حمراء وسوداء اللون، قالت الخادمة إنها رأت الرجل الغريب الذي أتى ليلة أمس إلى الإسطبل يلبسها.

أما الجواد المفقود، فقد اختفى أثره منذ الصباح، وبرغم دفع مكافأة كبيرة ووجود كل الغجر في دارتمور في حالة استنفار، لم يرد عنه أي نبأ مطمئن. دلت أخيراً التحاليل على وجود كمية لا بأس بها من مسحوق الأفيون في ما تبقى من عشاء فتى الإسطبل.

هذه باختصار أبرز معطيات القضية. سأعطيك الآن فكرة عما فعلته الشركة.

المفتش غريغوري الذي كلف بالتحقيق هو من خيرة المفتشين. وحالما وصل إلى مكان الحادث، ألقى القبض على المشتبه به المدعو فتزروي سيمبسون. وهو رجل يتحدر من عائلة مرموقة ورجل مثقف أيضاً.

لكنه لم يحاول أن ينفي تصرفه الليلة الفائتة وقال إنه لم يتصرف

عن سوء نية بل أراد فقط أن يحصل على المعلومات قبل سواه. ولما سئل عن ربطة العنق، اصفر وجهه وتعذر عليه أن يبرر وصولها إلى يد المغدور.

لوحظ من جهة أخرى عدم وجود آثار جراح عليه بينما يثبت سكين ستراكير أن أحد المعتدين عليه على الأقل لابد وأن يحمل آثار جراح. لديك كل التفاصيل الآن يا واتسون وأكون شاكراً لك لو استطعت أن تلقي بعض الضوء على ما حصل).

أجبته:

(ألا يمكن أن يكون ستراكير قد جرح نفسه بسكينه؟)

قال هولمز:

(ليس ممكناً فحسب بل محتملاً أيضاً. فتسقط بالتالي إحدى النقاط التي تلعب لصالح المتهم. أخشى ألا تكون أي من نظرياتنا مطابقة للواقع. لكني سأتحقق من الأمر بسرعة حالما نصل إلى هناك؛ ولا يسعني بالانتظار أن أضيف شيئاً على ما توفر لدي من معلومات حتى الآن).

وصلنا إلى تافستوك قبل المساء بقليل. وكان رجلان بانتظارنا في المحطة؛ أحدهما الكولونيل روس الرياضي الشهير والثاني المفتش غريغوري الذي ذاع صيته في أوساط شعبة المحققين في إنجلترا.

قال الكولونيل مرحباً:

يسرني مجيئك سيد هولمز. لقد فعل المفتش ما يمكن فعله حتى الآن؛ لكني لن أترك شيئاً إلا وأدقق فيه للانتقام للمسكين ستراكير واستعادة جوادي.

سأل هولمز:

(هل من تطورات جديدة؟)

أجاب المفتش:

للأسف لا. يبدو أن فتزروي سمبسون هو من سيقع في الشبكة. لكن أعترف أن الإثباتات ضده ظرفية بحتة وأن تطورات جديدة قد تطرأ وتقلب المقاييس).

(ماذا عن سكين ستراكير؟)

(استنتجنا أنه جرح نفسه عندما وقع. أما سمبسون فكان مهتماً جداً باختفاء الجواد الأوفر حظاً ونحن نشك في أنه سمم فتى الإسطبل؛ كما كان يحمل عصا ثقيلة ووجدت ربطة عنقه في يد المغدور. أعتقد أن هذه المعلومات كافية لإحالة القضية إلى المحكمة).

هز (هولمز رأسه) لم يا ترى أخرج الجواد من الإسطبل؟

ولو أراد أن يجرحه، لم لم يفعل هناك؟

هل وجد معه مفتاح ثان؟

ما تفسيره للورقة التي طلب من الخادمة أن تنقلها إلى فتى الإسطبل؟).

(يقول إنها عملة من فئة العشر باوندات وقد وجدنا واحدة في جيبه. أما الأفيون، فمصدره لندن على الأرجح ولربما تخلص من المفتاح عندما أنجز مهمته. ويرجح أن يكون الجواد في قعر إحدى الفجوات أو المناجم القديمة على مشارف المنطقة).

(ماذا كان تعليقه على ربطة العنق؟)

(اعترف أنها له وقال إنه أضاعها. لكن عنصراً جديداً طرأ ليثبت إخراجه الجواد من الإسطبل).

أصغى هولمز بانتباه.

(وجدنا آثاراً تدل على وجود مخيم للغجر ليلة الإثنين على بعد ميل من مكان الجريمة، وقد اختفى هذا المخيم نهار الثلاثاء.

فلنفترض أن سمبسون كان متواطئاً مع الغجر، لعله اصطحب الجواد إليهم ولعله في حوزتهم الآن).

(ممكن جداً. ثمة إسطبل ثان للتدريب قربه على ما أظن؟

(نعم، وعلينا ألا نستهتر بهذه النقطة أبداً. لكننا عايناه وما من شيء يدل على ضلوع المدرب سيلاس براون في القضية).

(وهل من رابط بين المدعو سمبسون ومصالح إسطبل كابلتون؟).

(إطلاقاً).

أسند هولمز ظهره إلى المقطورة وتوقف الحديث. بعد قليل، لاح على قرب منا بناء مستطيل رمادي اللون ومجموعة منازل غرباً هي مساكن كابلتون. ترجلنا جميعاً باستثناء هولمز الذي التقي مكانه شاخصاً في السماء أمامه، مستغرقاً في أفكاره. ولم ينهض من مكانه إلا بعد أن لامست يده، فانتفض وترجل من المقطورة.

خاطب الكولونيل روس الذي كان ينظر إليه بتعجب:

(أعذرني، استرسلت في أحلامي).

ولمعت عيناه في إشارة إلى حماسته؛ فأدركت أنه بات يمسك كالمعتاد مفتاحاً للحل مع أني لست أدري أين وجده.

قال غريغوري:

(أتفضل أن تذهب إلى مكان الجريمة مباشرة سيد هولمز؟)

(أفضل أن أبقى هنا قليلاً لأتحقق من بعض التفاصيل. لقد أعيد ستراكير إلى هنا على ما أظن؟)

(نعم، إنه في الطابق العلوي وسيبدأ الاستجواب غداً).

(أعتقد أنكم أجريتم جردة لكل ما وجد في جيبه عند حصول الجريمة؟).

(كل الأغراض موجودة الآن في غرفة الجلوس إذا شئت أن تراها).

(يسرني هذا).

توجهنا إلى الغرفة الأمامية وتحلقنا حول طاولة وضعت في الوسط بينما فتح المفتش علبة حديدية وأفرغ منها مجموعة من الأغراض.

تناول هولمز منها سكيناً وتفحصه بدقة، إنه سكين مميز جداً. على الأرجح أنه السكين الذي وجد في حوزة المغدور نظراً إلى بقع الدم عليه. لا شك أنك تعرف هذا السكين جيداً يا واتسون).

أجبته:

(يسمى سكين السد).

(يا له من أمر غريب أن يحمله شخص ما في مهمة صعبة

خاصة وأنه لا يمكن طيه في جيبه. وماذا عن هذه الأوراق؟

(إنها مجرد حسابات).

(حسناً، سنذهب إذاً مباشرة إلى ساحة الجريمة*.

لما خرجنا من غرفة الجلوس، كانت امرأة بالانتظار في الممر؛ اتجهت صوبنا وأمسكت ذراع المفتش وقد بدا وجهها نحيلاً مترقباً مطبوعاً بعلامات الرعب.

صرخت متحمسة:

(هل ألقيت القبض عليهم؟ هل وجدتهم؟)

(لا، سيدة ستراكير؛ لكن السيد هولمز حضر من لندن ليساعدنا وسنبذل ما في وسعنا).

قاطعه هولمز:

(أنا واثق من أنني التقيتك في بلايموث في حفلة خارجية قبل فترة قصيرة، سيدة ستراكير).

(لا، سيدي. أنت مخطئ).

(لا، أنا واثق، وكنت ترتدين فستاناً حريرياً أبيض اللون مطرزاً بريش النغام).

أجابت السيدة:

(لم يكن لي يوماً فستان كهذا، سيدي).

(حسناً، لا بأس).

ثم استأذن منها وتبع المفتش إلى الخارج. وما هي إلا مسافة قصيرة حتى وصلنا إلى الهوة التي وجدت فيها الجثة.

قال هولمز:

(لم تكن هناك رياح تلك الليلة على ما أظن).

(لا، بل مطر غزير؟)

(مما يعني أن الرياح لم تحمل المعطف إلى الشجيرات بل أحدهم فعل ذلك).

(لقد وضع عليها بالفعل).

(أى أيضاً أن الأرض كانت رطبة بعض الشيء ولا شك أن

آثار الأقدام لا زالت عليها منذ ليلة الاثنين).

تناول هولمز كيساً وضع فيه حذاء ستراكير وأحد حذاءين فتزروي سمبسون ونضوة الجواد الوهج الفضي.

ثم نزل إلى الهوة وتمدد على الأرض مسنداً ذقنه على يديه معايناً الوحل بعناية.

ثم سأل فجأة:

(ما هذا؟)

كان عود كبريت شمعي قصير احترق نصفه مكسواً بالوحل لدرجة أنه يخيل إليك للوهلة الأولى أنه قطعة خشب.

(كان مغموراً في الوحل).

تناول هولمز الأحذية من الكيس وقارن الآثار على الأرض، ثم صعد إلى أعلى الهوة وراح يزحف بين الشجيرات.

قال له المقتش عندها:

(أخشى ألا نعثر على براهين أخرى).

ونهض هولمز مضيفاً:

(أصبت! لكني أفضل أن أتجول قليلاً هنا قبل أن يهبط الليل بحيث أعرف ما عليَّ فعله غداً. أما هذه النضوة فسأحتفظ بها لتقيني من الشر).

نظر الكولونيل روس إلى ساعته بعدما نفد صبره لطريقة عمل صديقي الصامتة والنظامية.

قال:

(ليتك تعود معي. هناك عدة نقاط أود أن أعرف رأيك في شأنها لا سيما هل يتوجب علينا، احتراماً للجمهور، إزالة اسم الجواد من لائحة الأحصنة المشاركة في السباق).

صرخ هولمز بصوت حازم:

(إياك أن تفعل. ابق الاسم على حاله).

فأذعن الكولونيل لنصيحته:

(يسرني هذا سيدي. سنكون بانتظارك في منزل المسكين

ستراكير بعدما تنهي نزهتك وربما نذهب معاً إلى تافستوك).

وانصرف برفقة المفتش بينما اتجهت وهولمز إلى المشاع كانت الشمس قد بدأت تغيب خلف إسطبل كابلتون، لكن صديقي فوت عليه روعة المشهد لشدة إنهماكه بأفكاره.

ثم كسر الصمت قائلاً:

(أعتقد يا واتسون أنه يستحسن الآن تأجيل كشف هوية قاتل ستراكير والنظر في مسألة اختفاء الحصان).

(أين هو برأيك؟)

(سبق أن قلت إنه إما في بلايلاند الملك أو في كابلتون. إن لم يكن في المكان الأول، فلا بد أنه في المكان الثاني. فلنسلم بهذه الفرضية ونرى إلى أين ستقودنا).

كنا نتحدث ونمشي بخطي متسارعة وما هي إلا بضع دقائق حتى وصلنا مجدداً إلى الهوة. طلب مني هولمز عندها أن أذهب إلى الضفة اليمنى بينما يذهب هو إلى الضفة اليسرى.

وبالكاد خطوت بضع خطوات حتى سمعته يصرخ ورأيته يلوح لي بيده.

أترى أهمية المخيلة. لا ينقص غريغوري إلا هذه الصفة لقد تخيلنا ما قد حصل وعملنا بحسب ما تخيلناه وثبت أن نظريتنا صحيحة. فلنتابع.

انزلقت الأرض مجدداً تحت قدمينا ووصلنا إلى آثار المسار. ثم أضعناها لنصف ميل تقريباً ثم وجدناها مجدداً قرب كابلتون. هولمز كان أول من رآها فوقف المنتصر. وكانت واضحة أيضاً آثار أقدام رجل قرب المسار).

قلت:

(كان الجواد بمفرده في البدية).

(صحيح. كان بمفرده في البداية. لكن ما هذا؟)

استدار المسار المزدوج باتجاه بايلند الملك. أشار إليَّ هولمز بأن أتبعه.

قال:

(فلنتبع مسار العودة).

بعد مسافة قصيرة وصل إلى مدخل إسطبل كابلتون. وما أن اقتربنا منه حتى هرع سائس خيل من الداخل.

(هذا المكان ليس للمتسكعين).

إنما أريد أن أطرح سؤالاً فحسب. إذا أتيت غداً في الخامسة صباحاً، أيكون الوقت باكراً بالنسبة إلى السيد سيلاس براون؟)

(ها هو سيدي ليجيب على سؤالك بنفسه).

قدم من عند البوابة رجل عجوز متجهم الوجه حاملاً طرائد صيد في يده.

(ماذا هناك يا داوسون؟

لا داعي للنقاش!

عد إلى عملك وأنتما، ماذا تريدان؟)

أجاب هولمز بهدوء:

(نريد أن نأخذ عشر دقائق من وقتك سيدي).

(ليس لي وقت أضيعه. لا نريد غرباء هنا. أغربا عن وجهي وإلا فلت الكلب على أعقابكما).

اقترب هولمز عندها من الرجل وهمس شيئاً ما في أذنه. فانتفض واحمر حتى أذنيه.

صرخ:

(إنه كذب! مجرد كذب!).

(حسناً! أتفضل مناقشة الموضوع هنا أو في الداخل؟)

(ادخلا إذا شئتما).

حالما غادرنا، سألت هولمز مستوضحا:

(الجواد معه إذاً؟)

(لقد حاول التملص من الأمر لكني وصفت له ما حصل بالتفصيل، فاقتنع أني كنت أراقبه.

وصفت له كيف كان أول من رأى الجواد يهيم في الفناء بما أنه

كان أول المستيقظين؛ وكيف ذهب إليه وذهل عندما أدرك من جبهته البيضاء التي أعطته اسمه أن القدر ساقه إلى الجواد الوحيد الذي بإمكانه أن يهزم الجواد الذي راهن بكل ماله عليه.

ثم وصفت له كيف قرر للوهلة الأولى إعادته إلى بايلند الملك ثم لعبت قوى الشر بعقله وقرر إخفاءه حتى نهاية السباق في كابلتون. لما عرف كل هذه التفاصيل، لم يعد يهمه سوى إنقاذ نفسه).

(لكن ألا تخشى أن تبقيه في عهدته، ماذا لو آذاه؟)

(عزيزي واتسون، سيحافظ عليه كقرة عينه لأنه يدرك تماماً أنه خلاصه الوحيد. إياك أن تتفوه بكلمة للكولونيل عن الجواد).

(بالطبع لا ما لم تأذن لي بذلك).

(هذا أمر ثانوي مقارنة مع كشف هوية جون ستراكير).

(ستكرس وقتك لهذا الآن؟)

(على العكس، سنعود الليلة إلى لندن على متن القطار).

صعقت لما قاله هولمز. لم نمض سوى بضع ساعات في المكان وها هو يتخلى عن تحقيق لامع من دون أي تفسير منطقي. لم يتفوه بكلمة بعد ذلك إلى أن وصلنا إلى منزل المدرب حيث كان الكولونيل والمفتش بانتظارنا في البهو.

قال هولمز:

(سأعود وصديقي واتسون على متن قطار منتصف الليل إلى لندن. لقد استمتعنا كثيراً بهواء دارتمور العليل).

فتح المفتش عينيه والكولونيل فمه علامة التعجب.

سأل هذا الأخير:

(أتعني أنك فقدت الأمل في العثور على قاتل المسكين ستراكير؟).

هز هولمز كتفيه مجيباً:

(تعترض صعوبات كثيرة طريقنا. لكني أمل أن يكون حصانك عند خط الانطلاق نهار الثلاثاء وأتوسل إليك أن تجهز

فارسه. هل لي بصورة للسيد جون ستراكير؟

أخرج المفتش صورة من مغلف في جيبه وأعطاه إياها.

(عزيزي غريغوري، أيمكنك انتظاري هنا لحظة، أريد أن أطرح سؤالاً على الخادمة).

ما أن غادر هولمز الغرفة، قال الكولونيل روس:

(الواقع أن مستشارنا اللندني خيب آمالي بعض الشيء).

هممت بالرد دفاعاً عن صديقي لكنه عاد لحظتها إلى الغرفة.

(حسناً يا سادة، أنا جاهز الآن للذهاب إلى تافستوك).

فتح أحد صبيان الإسطبل باب العربة؛ فتبادرت للحال لهولمز فكرة إذ إنه انحنى نحو الصبي يسأله:

(في الإسطبل بضع خراف، من يهتم بها؟)

(أنا سيدي).

(هل لاحظت شيئاً غريباً فيها مؤخراً؟)

(لا، لا شيء يذكر. لكن ثلاثة منها منهكة القوى).

(دعني أحذرك يا غريغوري من الآفة الغريبة المتفشية بين الخراف. انطلق يا ساكس!).

بقيت علامات الاشمئزاز من سوء عمل صديقي بادية على وجه الكولونيل روس، إلا أن ملاحظة هولمز أثارت اهتمام المفتش).

(هل من نقطة أخرى تود أن تلفت انتباهي لها؟).

(الحادثة الغريبة مع الكلب ليلة الحادث).

(لم يفعل الكلب شيئاً تلك الليلة).

(بالضبط، أو ليس مستغرباً؟).

بعد أربعة أيام، استقليت وهولمز القطار مجدداً إلى ونشستير لمشاهدة سباق كأس ويسكس. لاقانا هناك الكولونيل روس لكنه كان متجهم الوجه وباردا إلى أقصى الحدود.

(ليس من أثر لجوادي).

سأل هولمز:

(أعتقد أنك تعرفه حالما تراه).

بدا الكولونيل غاضباً جداً:

(حتى الولد يعرف حصاني بفضل جبينه الأبيض).

(ماذا عن الرهانات؟).

(هذا أغرب ما في الأمر. بالأمس كانت خمسة عشر مقابل واحد لكن السعر تراجع أكثر فأكثر وقلما يصل الآن إلى ثلاثة مقابل واحد).

مع احتدام المعركة واقتراب موعد السباق، ألقيت نظرة على لوحة المراهنات.

صرخ الكولونيل:

(يا إلهي! الوهج الفضي الأوفر حظا؟).

وبدأت الأرقام ترتفع.

(أي أن جوادي سيشارك في السباق؟ لكني لا أراه. لم تمر ألواني من هنا. لابد أن هذا هو).

بالفعل، ظهر فجأة حصان من الحظيرة ومر بمحاذاتنا حاملاً على ظهره ألوان الكولونيل الشهيرة أي الأسود والأحمر.

مرر الكولونيل يده على عينيه قائلاً:

(السباق سباقي. لكن ألا تعتقد أنه آن الأوان يا سيد هولمز كي تكشف النقاب عن سرك؟).

(بالطبع، كولونيل. لقد عثرت عليه بين يدي محتال استملكه بكل بساطة عندما وجده).

(يا للمعجزة. يبدو الجواد في أحسن حالاته. أدين لك باعتذار سيد هولمز لأني شككت في قدراتك. لقد أسديت لي خدمة كبيرة بالعثور عليه، وستسدي لي خدمة أكبر لو كشفت هوية قاتل جون ستراكير).

أجاب هولمز بهدوء:

(لقد كشفتها).

نظرت والكولونيل بتعجب إليه:

(كشفت هويته! أين هو؟).

(إنه هنا).

(هنا! أين؟).

(إنه برفقتي في هذه اللحظة).

ثار غضب الكولونيل:

(صحيح أني مدين لك بما فعلته من أجلي، لكن ما قلته لتوك إما أنه مزحة أو إهانة لشخصي).

فضحك هولمز:

(أقسم أني لم أتقصدك أنت يا حضرة الكولونيل؛ فالقاتل الحقيقي واقف خلفك تماماً).

تراجع قليلاً وأمسك بعنق الجواد.

فصرخت والكولونيل:

(الجواد!)

(نعم، الجواد. وسيخف الذنب عنه إن قلت إنه فعل ذلك

دفاعاً عن النفس وأن جون ستراكير لم يكن يستحق ثقتك.

جلست وصديقي في إحدى زوايا المقطورة في طريق العودة إلى لندن ولا أبالغ إن قلت إن الرحلة بدت قصيرة بالنسبة إليَّ وإلى الكولونيل روس بينما كنا نستمع إلى سرد هولمز لمجريات الأحداث في إسطبلات التدريب في دارتمور ليلة الإثنين الماضي وكيف حل هذا اللغز.

(ذهبت إلى هناك وأنا واثق من أن فتزروي سميسون هو المذنب؛ لكن سرعان ما بينت البراهين براءته.

الواقع أنه أثناء وجودي في العربة عندما وصلنا إلى منزل المدرب، كنت أتساءل كيف فاتني برهان ساطع الذي فوته).

علق الكولونيل بالقول:

(أعترف أني لا أفهم حتى الآن ذلك الرهان).

(ليس لدقيق الأفيون أي طعم، وعندما يمزج بأي لون من ألوان الطعام العادي، فلا شك أن يستطعم به من يتناول الطعام ومن الممكن إخفاء طعمه بواسطة الكري، سمبسون بريء

من هذه الناحية مما يعني أن الشكوك موجهة صوب ستراكير وزوجته، من الواضح أن الكري أضيف بعد إعداد الوجبة إلى طبق صبي الإسطبل تلك الليلة بما أن الآخرين تناولا العشاء ولم يصابا بأذى).

(قبل أن أحسم الموضوع، تبادر إلى ذهني أيضاً معنى صمت الكلب الغريب.

فالحا دثة مع سمبسون تدل أن الكلب كان موجوداً في الإسطبل وأنه رغم دخول أحدهم وإحضاره الحصان، لم ينبح بما يكفي كي يوقظ الصبيين الآخرين. مما يعني أنه كان يعرف زائر منتصف الليل جيداً).

كنت مقتنعا أن جون ستراكير قصد الإسطبل ليلاً وأخذ الجواد لأي غرض؟

لغرض دنيء ولاشك وإلا لماذا استعمل المخدر لتنويم صبي الإسطبل؟

سبقت حالات أخرى جنى خلالها المدربون مبالغ طائلة من

خلال العمل ضد جيادهم عبر عملاء لهم والحؤول دون فوزها بطرق ملتوية. ما الحالة هنا؟

(تذكر أن ولا شك السكين المميز الذي وجد في يد ستراكير وهو سكين لا يستعملها أي رجل عاقل كسلاح وهو سكين يستعمل في أدق العمليات الجراحية كما شرح لنا الدكتور واتسون. مما يعني أنه كان سيستعمل في عملية دقيقة تلك الليلة.

لا يخفي عن ضليع مثلك في شؤون سباق الأحصنة يا كولونيل روس أنه يمكن إحداث شق صغير عند أوتار فخذ الحصان من دون ترك أي أثر فيبدأ الحصان عندها بالعرج الذي قد يفسر على أن نتيجة التمارين المضنية أو إصابته بداء المفاصل).

صرخ الكولونيل:

يا للخسيس!

يا للدنيء!

كم كنت أعمى!

لذا بالطبع أخذ الشمعة وعود الكبريت.

(صحيح. لكني اكتشفت، ولحسن حظي، عند معاينة أغراضه، ليس أداة الجريمة فحسب وإنما دوافعها أيضاً، أنت تعرف يا كولونيل أن أحدا لا يحمل معه فواتير غيره من الناس.

فاستنتجت أن لستراكير حياة مزدوجة وأن له منزلاً آخر. وتبين من طبيعة الفواتير أن ثمة سيدة معنية في الموضوع وامرأة ذات ذوق مترف).

(هكذا اتضحت الأمور. فقد اصطحب ستراكير الجواد إلى الهوة كي لا يرى أحدهم ضوءه.

وكان سيمبسون قد أوقع ربطة عنقه عندما هرب، فتناولها ستراكير ليستعين بها في ربط قدم الجواد.

ولما وصل إلى الفجوة، وقف خلف الجواد وأنار الضوء لكن الجواد أفلت منه لشدة خوفه من الوهج المفاجئ ولإدراكه بفطرته الحيوانية أن مكروها قد يصيبه.

وكان أن أصابت نضوته جبين ستراكير الذي كان قد خلع

معطفه رغم المطر الغزير لينفذ مهمته بارتياح. وقد جرحه السكين أثناء وقوعه. كل شيء واضح).

صرخ الكولونيل:

(ممتاز! ممتاز! وكأنك كنت معه!).

(أعترف أن اكتشاف النقطة الأخيرة استغرق وقتاً أطول، فكيف لرجل كستراكير أن ينجز مهمة دقيقة كهذه من دون تمرس؟

وعلام سيتمرس؟

وصادف أن رأيت الخراف فطرحت سؤالاً فوجئت أن أراه يؤكد شكوكي).

(لقد حسنت يا سيد هولمز).

(لا شك أن تلك المرأة أغرقته في الديون ودفعته إلى ارتكاب هذه المكيدة الدنيئة).

سأل الكولونيل:

(لقد أوضحت كل الأمور باستثناء أمر واحد:

أين كان الجواد؟).

(كان أحد جيرانك يعتني به. لكن لا بد من عفوك عنه. وصلنا إلى كلافام جنكشن على ما أظن وسنصل إلى فكتوريا في أقل من عشر دقائق.

يسرني يا كولونيل أن أطلعك على كل التفاصيل التي قد تهمك إن شئت).

مِتّ

مغامرات شيرلوك هولمز

فضيحة في بوهيميا

تأليف

آرثر كونان دويل

– لطالما كانت امرأة متميزة بالنسبة إلى شيرلوك هولمز. فقلما سمعته يذكرها بغير اسم. وهي كانت تطغى في نظره على سائر النساء من بني قومها. ليس لأن شعوراً يشبه الحب راوده حيال إيرين أدلير، بل لأن كل المشاعر، وهذا الشعور تحديداً، تتناقض مع فكره البارد الدقيق لكن المتزن. أعترف بأنه أفضل الآلات تحليلاً ومراقبة في العالم أجمع: لكنه فاشل كعاشق. حتى أنه لم يتحدث يوماً عن تلك الأهواء اللطيفة، لأن قبول المحلل المحنك هذه المشاعر الدخيلة في طبعه المرهف والمنتظم هو بمثابة إدخال عنصر مثله قد يشكك في نتائجه الفكرية. ومع ذلك، لم ير في العالم سوى تلك المرأة، إيرين أدنير، والتي يكتنف بعض الشك سيرتها.

– لم أعد أرى شيرلوك هولمز كثيراً منذ أن أبعدني زواجي عنه. بينما بقي هو في مسكننا في شارع بيكر، مدفوناً وسط كتبه. وكان لا يزال كما عهدته مستغرقاً في دراسة الجرائم ومسخراً كل طاقاته وقدراته على اتساعها لمراقبة مفاتيح الحل وفك الألغاز التي تعذر على الشرطة كشفها. وكانت تردني أنشطته من حين إلى آخر. لكن ما عدا ذلك، وباستثناء ما قرأته عنه في الصحف، لم أعرف الكثير عن صديقي القديم.

– ذات ليلة، في ٢٠ آذار (مارس) ١٨٨٨م، قادتني قدماي إلى

شارع بيكر. ولما مرر بقرب الباب الشهير، انتابني شعور عارم برؤية هولمز مجدداً لمعرفة آخر انشغالاته. نظرت إلى فوق فرأيت وجهه الطويل النحيل يمر مرتين وهو يجوب الغرفة ببطء ويداه مشبوكتان خلف ظهره. أدركت للحال، أنا الذي خبر أدنى تصرفاته وحركاته، أنه منكب على عملٍ ما، يحاول حل مشكلة جديدة. قرعت الجرس واصطحبت إلى الغرفة التي كانت لي أيضاً جزئياً.

– لم يسرف في التعبير عن عاطفته، وهو قلما فعل؛ لكنه بدا مسروراً برؤيتي. ومن دون أن يتكلم، وبنظرة لطيفة أعطاني كرسياً لأجلس عليه. ثم وقف أمام الموقد وراح ينظر إليّ نظرة المتفقد.

– قال: «إن الزواج يناسبك. أعتقد أن وزنك زاد سبع باوندات ونصف الباوند منذ آخر لقاء لنا».

– «بل سبع باوندات».

– «صحيح، كان يجدر بي أن أفكر أكثر. وقد عدت تمارس مهنتك كما أرى».

«كيف عرفت إذاً؟»

«أرى واستنتج. وكيف عرفت أنك غالباً ما تبللت مؤخراً وأنك تستخدم خادمة متهورة وطائشة؟»

«هذا كثير يا عزيزي هولمز – كيف أمكنك استنتاج كل هذا؟»

ضحك في قرارة نفسه ثم شبك يديه الطويلتين المتوترتين وراح يشرح لي عملية الاستنتاج.

لم أقو على تمالك نفسي من الضحك على سهولة الشرح. «كلما سمعتك تعطي تبريرات، يبدو لي الأمر بسيطاً لدرجة أن باستطاعتي القيام به، مع أن تحليلك يذهلني في كل مرة إلى أن تكمل العملية. وأعتقد أن عيني لا تشكوان من شيء أيضاً!»

أشعل سيجارة وارتمى على الكرسي ثم أجاب: «صحيح، لكنك ترى ولا تراقب، الفرق واضح. سأعطيك مثلاً، لقد رأيت مراراً الدرجات التي تقود إلى هنا».

«مراراً».

«كم مرة؟»

«مئات المرات».

«كم عددها إذاً؟»

«عددها! لا أعرف».

«أرأيت! ذلك لأنك لم تراقبها بل رأيتها. هذا كل ما في الأمر. بالمناسبة، بما أنك مهتم بهذه المشاكل الصغيرة، لعل هذا يهمك».

وناولني ورقة سميكة زهرية اللون كانت على الطاولة، قائلاً: «وصلت عبر البريد. اقرأها بصوت عالٍ».

لم تكن مؤرخة ولا موقعة ولا معنونة. وجاء فيها:

«سيتم الاتصال بك الليلة في الثامنة إلا ربعاً، شخص يريد استشارتك في أمر مهم. إن خدماتك الأخيرة للعائلات المالكة في أوروبا أثبتت أنك موضع ثقة في المسائل المهمة. وقد تلقينا هذه المعلومات عنك من كل حدب وصوب. كن في غرفتك في هذه الساعة ولا تمتعض إذا كان ضيفك مقنعاً».

علقت على الموضوع بالقول: «ثمة لغز. ما معناها برأيك؟»

«لا أملك معلومات بعد، ومن الخطأ إطلاق النظريات قبل اكتمال المعلومات. وأنت، ماذا تستنتج؟»

تفحصت الكتابة والورقة المستعملة.

ثم أجبت محاولاً تقليد زميلي في تحليله: «يبدو أن صاحب الرسالة ميسور. لأن هذا النوع من الورق غالٍ وهو متين وصلب.

«فاخر – إنها الكلمة الصحيحة. ليس ورقاً إنجليزياً على الإطلاق. ضعه أمام مصدر نور».

ولما فعلت، رأيت الحرف الكبير E والحرفين الصغيرين g وp والحرف الكبير G والحرف الصغير t في نسيج الورقة نفسه.

سأل هولمز: «ما رأيك بهذا؟»

«لا شك أنه اسم الصانع أو مونوغرامه بالأحرى».

«إطلاقاً. الحرف G الكبير مع الحرف t الصغير يرمز إلى كلمة Gesellschaft أي شركة بالألمانية. والحرف P ورق طبعاً. أما Eg..».

تناول مجلداً بنياً ضخماً من على أحد الرفوف. «لقد وجدتها: إغريا Egria، التي تقع في بلد ناطق باللغة الألمانية – يوهيميا، واشتهرت على أنها شهدت مقتل والينشتاين وفيها معامل عديدة لصنع الزجاج وطواحين الورق. حسناً، ما رأيك؟

أجبت: «لقد صنع الورق في بوهيميا».

«بالضبط. والذي كتب الرسالة ألماني كما يظهر من تركيبة الجمل الغريبة».

وبينما هو يتكلم، سمع صوت حوافر أحصنة تقترب، تبعه قرع حاد على الجرس.

«من الأفضل أن أنصرف يا هولمز».

«لا عزيزي الطبيب. ابق مكانك. يبدو الأمر مثيراً ومن المؤسف أن تفوته».

«لكن زبونك..».

«دعك منه. لربما احتجت أنا أو هو إليك. ها هو آتٍ. اجلس على هذا الكرسي وأعرنا انتباهك».

توقف عند الباب وقع الخطوات البطيئة والثقيلة التي سمعناها في السلالم وفي الرواق. ثم قرع الباب بقوة وحزم.

قال هولمز: «تفضل بالدخول!»

دخل رجل لا يقل طوله عن ٦ أقدام و٦ إنشات، مفتول العضلات كهرقل. وكان هندامه غنياً لدرجة إثارة السخرية في إنجلترا. وظهرت يداه الضخمتان عبر كميه ومن أمام معطفه الأزرق القاتم وقد ألقاه على كتفيه، مزركشاً بالحرير الناري اللون. وكان يحمل في يده قبعة عريضة الحافة بينما وضع على وجهه قناعاً أسود.

سأل بصوت رخيم ولكنة ألمانية واضحة: «هل تلقيت رسالتي؟ قلت إني سآتي فوراً».

أجال النظر بيننا نحن الاثنين وكأنه حائر في من يكلم.

قال هولمز: «تفضل بالجلوس. أعرفك على صديقي وزميلي الدكتور واتسون الذي يساعدني من وقت إلى آخر في قضاياي. إلى من لي شرف التحدث؟»

«الكونت فون كرام، نبيل من نبلاء بوهيميا. أفهم أن صديقك رجل شريف موضع ثقة لأسر أمامه قضية بالغة الخطورة. وإلا، أفضل مخاطبتك على انفراد».

فهممت بالنهوض لكن هولمز استوقفني من معصمي وأجلسني مكاني.

«الاثنان أو لا أحد. باستطاعتك أن تقول له كل ما ستقوله لي».

«حسناً. سأبدأ إذاً بطلب توخي أقصى درجات السرية لسنتين، حيث لن يعود للمسألة أهمية بعد انقضاء هذه الفترة. لكنها قد تحدث الآن وقعاً بالغاً على تاريخ أوروبا».

قال هولمز: «أعدك بذلك».

«وأنا أيضاً».

أردف الزائر: «عذراً عن هذا القناع. فمستخدمي لا يريد الإفصاح عن هوية عميله لكما وأعرف أني لست الشخص الذي عرفت به عن نفسي».

أجاب هولمز: «اعتقدت ذلك».

«الوضع حرج جداً ولا بد من توخي أقصى درجات الحيطة والحذر تفادياً لفضيحة تضع إحدى العائلات الأوروبية المالكة، عائلة أورمشتاين، ولية العرش، على كف عفريت».

تمتم هولمز: «اعتقدت هذا أيضاً».

فتح هولمز عينيه مجدداً ونظر إلى زبونه العملاق وقد نفد صبره.

«هلا أطلعتني يا صاحب الجلالة على قضيتك حتى أتمكن من نصحك؟»

انتفض الرجل من على كرسيه وخلع القناع عن وجهه ورماه أرضاً. وصرخ: «صحيح، أنا الملك. ما الداعي لإخفاء هويتي؟»

تمتم هولمز مجدداً: «صحيح، ما الداعي لذلك؟

إني أتحدث مع ويلهلم غوتسرايش سيجيموند فون أورمشتاين، دوق كاسل فالشتاين الكبير، ولي عرش بوهيميا».

«لكنك تتفهم وضعي. فأنا لست معتاداً على تسوية هذه الأمور بنفسي. لقد أتيت متخفياً من براغ كي أستشيرك».

أجاب هولمز وقد أعاد إغماض عينيه: «استشرني إذاً».

«إليك القضية باختصار: قبل خمس سنوات، خلال زيارة مطولة لوارسو، التقيت بإيرين أدلير المغامرة الشهيرة التي سمعت عنها بلا شك».

سألني هولمز: «هلا بحثت لي عنها في فهرسي من فضلك، يا دكتور؟»

كان يحتفظ لنفسه بأرشيف عن الشخصيات والأشياء.

تابع هولمز: «فلنر. مواليد ليو جيرسي عام ١٨٥٨م. مغنية مرنة، لا سكالا، نجمة أوبرا وارسو الإمبراطورية. وبعد! متقاعدة من مسارح الأوبرا. من سكان لندن. أفهم من جلالتك أنك ارتبطت بهذه الشابة وراسلتها وتود الآن استعادة تلك الرسائل الفاضحة».

«بالضبط. لكن كيف..».

«هل عقدتما قراناً سرياً؟»

«إطلاقاً».

«هل من أوراق أو إفادات رسمية؟»

«إطلاقا».

«لا أفهمك إذاً. لو استعملت هذه الشابة الرسائل للابتزاز أو لأغراض أخرى، كيف ستثبت صحتها؟»

«من الخط».

«مزور».

«من استعمال ورقي الخاص».

«مسروق».

«من ختمي».

«مقلد».

«من صورتي».

«مشتراة».

«كلانا في الصورة».

«يا إلهي! هذا يعقد الأمور! لقد أخطأت جلالتك».

«لقد كنت متهوراً».

«وضعت نفسك في وضع حرج للغاية».

«لم أكن إلا ولي العرش في حينه. كنت شاباً ولا أبلغ الآن إلا الثلاثين من العمر».

«لابد من استعادة الصورة».

«سبق أن حاولنا وفشلنا».

«عليك أن تدفع لتتمكن من استعادتها منها».

«لن تبيعها».

«سرقتها إذاً».

«جرت خمس محاولات باءت كلها بالفشل».

ضحك هولمز: «إنها مشكلة بسيطة».

أجاب الملك لائماً: «لكنها خطرة بالنسبة إليّ».

«خطرة كثيراً. وماذا ستفعل بالصورة؟»

«تريد هلاكي؟»

«كيف؟»

«أنا على وشك الزواج؟»

«علمت بهذا!»

«سأتزوج كلوتيلد لوتمان فون ساكس مينينغين، ابنة ملك إسكندينافيا الثانية. ولا شك أنك تعرف مبادئ عائلتها الصارمة».

«وإيرين أدنير؟»

«تهدد بإرسال الصورة إليهم. لها وجه أجمل امرأة في العالم وعقل أعند الرجال».

«أواثق أنها لم ترسلها بعد؟»

«كل الثقة».

«لم؟»

«لأنها هددت أن تفعل يوم إعلان الخطوبة رسمياً يوم الإثنين القادم».

أجاب هولمز: «أمامنا ثلاثة أيام إذاً. سأرسل لك برقية لأطلعك على التطورات».

«أرجوك افعل. فأنا متوتر جداً».

«وماذا عن المال؟»

«أعطيك حساباً مفتوحاً».

«كلياً؟»

«حتى أني سأقدم إحدى مقاطعات مملكتي كي أحصل على الصورة».

«والمصاريف الجارية؟»

أخرج الملك من معطفه كيساً ثقيلاً من جلد الشمواة ووضعه على الطاولة قائلاً:

«فيه ثلاثة آلاف باوند من الذهب وسبعمئة من الورق».

حرر هولمز إيصالاً في دفتره وأعطاه له. ثم سأل:

«هل لي بعنوان الآنسة؟»

«بروني لودج، جادة سيربانتاين، غابة القديس جون».

«عمت مساء يا صاحب الجلالة». ثم أردف حالما ابتعدت العربة الملكية في الشارع: «عمت مساء يا واتسون. هلا حضرت غداً بعد الظهر بعد الثالثة؟ أود مناقشة الموضوع معك».

وصلت في تمام الثالثة إلى شارع بيكر لكن هولمز لم يكن قد عاد بعد. وقد أثارت هذه القضية اهتمامي كثيراً نظراً إلى طبيعتها وكذلك إلى وضع زبونه الحرج اللذين أعطياها طابعاً خاصاً. أضف إلى طبيعة هذه القضية سيطرة رفيقي هولمز على الوضع وتحاليله الدقيقة الحاسمة التي جعلتني أستمتع بدراسة طريقة عمله ومتابعة أساليبه السريعة البارعة التي يحل من خلالها أكثر الألغاز تعقيداً.

قبل الرابعة بقليل، فتح الباب ودخل هولمز الغرفة. وضع يديه في جيبه ومدد رجليه أمام الموقد وراح يضحك لبضع دقائق.

«ماذا هناك؟»

«أمر مضحك حقاً. أراهن أنك لن تحزر أبداً كيف أمضيت هذا النهار أو إلام قادني الأمر».

«أعتقد أنك كنت تراقب عادات الآنسة إيرين أدنير وربما منزلها أيضاً».

«بالضبط. وجدت بريوني لودج. إنها فيلا رائعة خلفها حديقة، مشيدة قرب الطريق ومؤلفة من طبقتين. قفل محكم على الباب، غرفة جلوس فسيحة في الجناح الأيمن فيها أثاث جميل ونوافذ طويلة تكاد تلامس الأرض. درت حول الفيلا لأراها من كافة الزوايا، لكني لم أجد ما يثير اهتمامي».

سألت: «وماذا عن إيرين أدنير؟»

«لقد فتنت كل الرجال. إنها أخبث إنسان متستر تحت قبعة على سطح الأرض. إنها تعيش حياة هادئة، تغني في الحفلات الموسيقية، تخرج يومياً في الخامسة وتعود في تمام السابعة لتناول العشاء. وقلما تخرج في أوقات أخرى إلا كي تغني. يزورها رجل واحد، ويا له من

رجل! داكن البشرة، بهي الطلة، أنيق. يحضر مرة يومياً على الأقل وأحياناً مرتين. يدعى السيد غودفريه نورتون. من الواضح أنه يلعب دوراً بارزاً في القضية بما أنه محامٍ. ما العلاقة بينهما وما الغرض من زياراته المتكررة؟

هل هي زبونته، صديقته، أو عشيقته؟

في هذه الحالة الأخيرة، يفترض أنها سلمته الصورة. يتوقف استمراري في تحرياتي على هذه النقطة بالذات. أخشى أن أكون أضجرتك بكل هذه التفاصيل لكن يجب أن ترى المشاكل الصغيرة كي تفهم الوضع جيداً».

أجبت مطمئناً: «كلي سمع لك».

«بينما أنا أحلل المسألة، وصلت عربة أجرة أنيقة وترجل منها رجل وسيم. مكث في المنزل حوالي نصف ساعة وكنت ألمحه عبر نوافذ غرفة الجلوس يروح ويجيء ويتكلم بحماسة ويشير بيديه. أما هي، فلا شيء عنها. وعندما استقل العربة مجدداً، أخرج ساعة ذهبية من جيبه ونظر إليها قلقاً ثم أمر السائق «انطلق بأقصى سرعة».

«مضوا في طريقهم فحرت في أمري، هل أتبعهم أم لا. وقد تسنى لي

مشاهدتها لبرهة؛ إنها امرأة فاتنة، لها وجه قد يموت أي رجل في سبيله.

«انتقلت عربتي بسرعة لم يسبق لي أن سرت فيها من قبل. سددت الأجرة وهرعت إلى الكنيسة. وجدتها مقفرة إلا من الشخصين اللذين لحقت بهما ورجل دين. كانوا متحلقين حول المذبح».

«فجأة، استداروا ثلاثتهم نحوي وهرع غودفريه إليّ بأسرع ما أمكن صارخاً: «الحمد لله! جئت في الوقت المناسب! هيا! هيا!»

«فسألت: «ماذا هناك؟»

«تعال يا رجل. سيستغرق الأمر ثلاث دقائق لا غير وإلا لا يكون قانونياً.

«جررت إلى المذبح وقبل أن أعي ما يحصل، وجدتني أتمتم بعض الأجوبة التي أسرت في أذني وأتعهد بأشياء أجهلها وأشهد لقران إيرين أدليرو غودفريه نورتن».

قاطعته: «إنه تطور بارز مفاجئ. وبعد؟»

«أصبحت مخططاتي بعدها على المحك. وبدا لى أن الزوجين على أهبة الرحيل، مما يستوجب اتخاذ تدابير فورية وحاسمة. لكنهما افترقا عند الباب. وسمعتها تقول له: سأتي إلى الحديقة في الخامسة كالمعتاد». ومضيا كل في طريقه بينما عدت أنا لأجري ترتيباتي».

«ألا وهي؟»

«أحتاج إلى تعاونك، دكتور».

«يسعدني هذا».

«أتمانع من خرق القانون؟»

«إطلاقاً».

«ولا المخاطرة في زجك في السجن؟»

«ليس في سبيل قضية محقة».

«القضية محقة جداً!»

«أنا خادمك الأمين إذاً».

«كنت واثقاً أنك موضع ثقة. يجب أن نذهب إلى بريولي لودج في السابعة لملاقاتها».

«وبعد ذلك؟»

«دع الأمر لي. لقد رتبت كل شيء. لكني أشدد على نقطة واحدة فقط. لا تتدخل مهما حصل. مفهوم؟»

«عليّ البقاء محايداً؟»

«لا تفعل شيئاً مهما حصل. سيتم إدخالي في النهاية إلى المنزل، ثم تفتح نافذة غرفة الجلوس بعد ٤ أو ٥ دقائق. عليك أن تمكث على مقربة من النافذة».

«نعم».

«عليك مراقبتي لأني سأكون ظاهراً لك».

«نعم».

«وحالما أرفع يدي، عليك أن ترمي ما سأطلب منك رميه إلى الداخل وتصرخ في موازاة ذلك تحذيراً من اندلاع الحريق. أما زلت معي؟»

«نعم».

«ممتاز».

واختفى هولمز في غرفة نومه ثم خرج بعد دقائق. لقد خسر المسرح ممثلاً عظيماً والعلم محللاً دقيقاً عندما أصبح اختصاصياً بالجرائم.

غادرنا شارع بيكر في السادسة والربع. وكان الغسق قد حل والمصابيح بدأت تُضاء. كان المنزل كما تصورته استناداً إلى وصف شيرلوك هولمز، لكنه أقل انعزالاً مما توقعته.

لاحظ هولمز بينما كنا نروح ونجيء أمام المنزل:

«أترى، هذا الزواج يسهل الأمور نوعاً ما. لأن الصورة باتت سلاحاً ذا حدين. ويبقى السؤال أين سنجد الصورة؟»

«أصبت، أين؟»

«لا أتوقع أن تحملها معها».

«أين إذاً».

«لدى مصرفيها أو محاميها. لكن النساء متكتمات بطبيعتهن ويحببن كتم أسرارهن بأنفسهن. فلم تعطيها لشخص آخر؟

وتذكر أنها عازمة على استعمالها في غضون أيام. لذا ستبقيها في متناول يدها، لابد أنها في منزلها».

«لكن المنزل تعرض للسرقة مرتين».

«هراء! لم يحسنوا البحث عنها!»

«وكيف ستبحث أنت عنها؟»

«لن أبحث».

«ماذا؟»

«سأجعلها تريني إياها».

«لكنها سترفض حتماً».

«لن تستطيع ذلك. أسمع صوت عجلات. إنها عربتها. نفذ أوامري بحذافيرها».

وبينما هو يكلمني، شوهدت أضواء العربة الجانبية تسطع عند منعطف الجادة. ولما توقفت، حصل عراك عنيف. فهرع هولمز إلى الحشد ليحمي السيدة. لكنه حالما وصل إليها، صرخ عالياً وارتمى أرضاً والدم يسيل من وجهه. كانت إيرين أدلير، كما لا زلت أسميها، قد هرعت إلى السلم. وقفت في الأعلى بطلتها البهية وسط أنوار الردهة، تراقب ما يحصل في الشارع.

سألت: «هل إصابة المسكين خطرة؟»

أجابت عدة أصوات: «إنه ميت».

وبادر آخر إلى القول:

«لا، لا زال فيه نفس حياة. لكنه قد لا ينجو إذا نقل إلى المستشفى».

قالت امرأة مطمئنة:

«إنه رجل شجاع. لولاه لكانوا استولوا على حقيبة السيدة وساعتها. إنهم عصابة، عصابة عنيفة. آه، إنه يتنفس.

«لا يمكننا تركه في الشارع. هل ندخله سيدتي؟»

«طبعاً. ضعوه في غرفة الجلوس. ثمة أريكة مريحة هناك من هنا لو سمحتم!»

مدد هولمز بروية وحذر في الغرفة الرئيسية بينما كنت أراقب المجريات من موقعي قرب النافذة.

فكنت أرى هولمز ممدداً على الأريكة. لست أعرف هل وخزه ضميره في تلك اللحظة للدور الذي يلعبه، كل ما أعرفه أني لم أشعر أبداً بهذا القدر من الحياء في حياتي كما شعرت به عندما رأيت هذه المخلوقة الجميلة التي كنت متواطئاً ضدها أو الرقة واللطافة التي كانت تسهر بهما على راحة الجريح. ومع ذلك، سأكون غشاشاً لو انسحبت الآن من الدور الذي أناطه بي هولمز، خاصة وأني لا أجرحها؛ بل أحول وهولمز دون تركها تجرح أحدهم.

استوى هولمز على الأريكة وراح يتحرك مكانه كمن يطلب الهواء. فسارعت خادمة إلى فتح النافذة. وللحال، رأيته يرفع يده فرميت العبوة إلى الداخل صارخاً: «حريق».

وما أن لفظت هذه الكلمة حتى احتشد جيش من الفضوليين. تعالت كتل من الدخان في الغرفة وعبر النافذة إلى الخارج. فتسللت خارج الحشد المرتبك ووقفت عند زاوية الطريق. وما هي إلا عشر

دقائق حتى انضم صديقي إليّ.

قال: «لقد أحسنت فعلاً. ما قمت به ممتاز. كل شيء على ما يرام».

«حصلت على الصورة؟»

«أعرف أين هي».

«هي أرشدتني كما توقعت».

«لست أفهم».

أجاب ضاحكاً: «كانت مسألة بسيطة. نقلت إلى غرفة جلوسها كما اعتقدت. وكانت الصورة في مكان ما بين هذه الغرفة وغرفة نومها وقد صممت على اكتشافه. وبعدما مددوني على الأريكة، تظاهرت بطلب الهواء فاضطروا إلى فتح النافذة، معطياً إياك الفرصة المناسبة».

«كيف ساعدك هذا؟»

«كان دورك حاسماً. حالما تدرك أي امرأة أن حريقاً اندلع في منزلها، تهرع بالغريزة لإنقاذ أثمن ما لديها. إنها غريزة جامحة استغليتها أكثر من مرة. أما الصورة فمخبأة خلف لوحة منزلقة فوق الجرس تماماً. وصلت إلى هناك بلمحة بصر فاسترقت النظر وقد سحبت نصف الصورة. ولما

صرخت أنه إنذار كاذب، أعادتها إلى مكانها وهرعت إلى خارج الغرفة ولم أرها بعد ذلك. فنهضت واستأذنت مغادرا المنزل. ترددت عند الباب هل آخذ الصورة الآن؛ لكن الحوذي دخل لحظتها وراح يراقبني عن كثب، ففضلت الانتظار. لأن كثرة التسرع تفسد الأمر».

سألت: «ماذا الآن؟»

«انتهى بحثنا نسبيا. سأتصل بالملك غدا وبك إذا شئت ذلك. سيتم إدخالنا إلى غرفة الجلوس لانتظار السيدة. لكنها قد لا تجدنا ولا تجد الصورة عندما تأتي. ولعل جلالته سيسر كثيرا لو استعادها بنفسه».

«متى ستتصل؟»

«في الثامنة صباحا. لن تكون قد استيقظت بعد فتكون الساحة خالية أمامنا. علينا الاستعداد الآن لأن هذا الزواج قد يعني تغييرا جذريا في نمط حياتها وعاداتها. سأتصل بالملك فورا».

كنا قد وصلنا إلى شارع بيكر وتوقفنا عند المدخل. راح هولمز يبحث في جيبه عن المفاتيح عندما قال أحد المارة:

«عمت مساء سيد شيرلوك هولمز».

قال لي هولمز وهو ينظر إلى الشارع المنور: «أعرف هذا الصوت.

من تراه يكون؟»

مكثت الليلة في شارع بيكر. وبينما كنا نتناول الفطور والقهوة، دخل ملك بوهيميا الغرفة.

صرخ ممسكا شيرلوك هولمز بكتفه ومتفرسا به: «هل حصلت عليها؟»

«بعد».

«لكن ثمة أمل، صح؟»

«ثمة أمل».

«هيا بنا إذاً. أتحرق شوقا للذهاب».

نزلنا من الغرفة.

وبادر هولمز إلى القول: «لقد تزوجت إيرين أدلير».

«تزوجت؟ متى؟»

«أمس».

«بمن؟»

«بمحام إنجليزي يدعى نورتون».

«ولكنها لن تحبه؟»

«آمل أن تحبه».

«أين الأمل إذاً؟»

«الأمل في أن ذلك سيوفر على جلالتك عناء المشاكل المستقبلية. فلو كانت تحب زوجها هذا يعني أنها لا تحب جلالتك. وإذا لم تكن تحب جلالتك، فما من مبرر لتتدخل في خطط جلالتك».

«صحيح. لكن... حسنا! كم كنت أتمنى لو فزت بها أنا! لكانت أصبحت أروع الملكات!»

كان باب بريوني لودج مفتوحا وسيدة عجوز واقفة عند الباب. نظرت إلينا نظرة ساخرة ونحن نترجل من العربة.

قالت: «السيد شيرلوك هولمز على ما أعتقد؟»

أجاب صديقي بشيء من التعجب والمفاجأة:

«نعم، السيد هولمز».

«لقد أعلمتني سيدتي أنك قد تحضر. غادرت صباحا مع زوجها قرابة الخامسة والربع من محطة شيرنغ كروس باتجاه اليابسة».

صرخ هولمز وقد تملكه مزيج من المفاجأة والأسى:

«ماذا! أتعنين أنها غادرت إنجلترا؟» «إلى غير رجعة».

فسأل الملك بإلحاح: «والأوراق؟

ضاع كل شيء».

«سنرى».

تجاوز الخادمة وهرع إلى الغرفة يتبعه الملك وأنا. فوجدنا الأثاث مبعثرا في كل اتجاه. وسارع هولمز إلى الجرس وفتح مغلقا منزلقا صغيرا ثم أدخل يده وأخرج صورة ورسالة. أما الرسالة فمؤرخة في منتصف الليلة الفائتة، وجاء فيها:

«**عزيزي السيد شيرلوك هولمز.**

لقد أحسنت فعلا. أوقعتني في فخك. لم تساورني أية شكوك حتى ما بعد اندلاع الحريق. لكني لما أدركت كيف افتضح أمري، بدأت أفكر. سبق أن حذرت منك قبل أشهر.

فلو أراد الملك استخدام عميل، سيختارك حتما. حتى أني أعطيت عنوانك. وقد عرفت من خلال تصرفاتك ما الذي تسعى وراءه. فأرسلت الحوذي جون ليراقبك.

تبعتك حتى النهاية لأتأكد أني فعلا محط اهتمام السيد شيرلوك هولمز الشهير. ثم ذهبت لمقابلة زوجي.

أما الصورة، فليسترح زبونك. إني أحب رجلا أفضل منه وهو

يبادلني نفس الحب. فليفعل الملك ما يشاء من دون تدخل من أساء في حقها. سأحتفظ بها فقط دفاعا عن نفسي، وكسلاح يطمئنني دوما في أي خطوات أخطوها مستقبلا. وأترك له صورة قد يهمه الاحتفاظ بها؛ وتفضل عزيزي السيد شيرلوك هولمز بقبول فائق الاحترام.

مع أصدق التحيات

إيرين نورتن، أدلير سابقاً

– بعد أن فرغنا من قراءة الرسالة، صرخ ملك بوهيميا:

«يا لها من امرأة! يا لها من امرأة! لكانت أصبحت أروع الملكات!»

– أجابه هولمز: «آسف لأني لم أستطع إنهاء القضية كما كنت تتمنى جلالتك».

– «على العكس، عزيزي. أبليت بلاء حسنا. أنا واثق أنها لن تخل بوعدها. والصورة الآن في أمان كما لو أننا رميناها في النار».

– «يسرني سماع هذا منك».

– «أدين لك بالكثير. قل لي أرجوك كيف أكافئك؟

هذا الخاتم... وسحب من إصبعه خاتما على شكل ثعبان من الزمرد وأعطاه لهولمز.

– فقال هولمز: «إن جلالتك تملك شيئا أثمن من الخاتم».

– «ما هو؟»

– «هذه الصورة!»

– فنظر الملك متفاجئا: «صورة إيرين! طبعا، خذها إن شئت».

– «شكرا».

– هكذا هددت فضيحة كبرى مملكة بوهيميا وهكذا هزمت حنكة امرأة خطط السيد شيرلوك هولمز المحكمة. وهو كلما تكلم عن إيرين أدلير وأشار إلى صورتها، أسماها «المرأة».

تمّت